المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

حيدر حيدر

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..
بدر

الوعول

قصتان

حيدر حيدر

التموّجات

قصّتان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً ، موكيالي ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠

□ حقل أرجوان □

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعِها إلى الصلح ، فإن اجابتك وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود يكون لك للتسخير ويُستعبَدُ لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصِرْها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة ، كلُّ غنائمها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستَبْقِ منها نسمة ما ، بل تحرّمها تحريماً (أي إفناء) كما أمرك الرب إلهك».

«سفر التثنية/الاصحاح العشرون».

الفصل الأول

□ زمان الذاكرة □

□١□

ليس في الأمر ما هو خارق. زمن المعجزات مضى، كذلك زمن الناس المحايدين. لقد أقبل الزمن الفلسطيني الملون بالدماء والحرائق والشقاء.

اني أروي ذلك بعد سبع سنوات ونصف من السجن، وبعد ثلاثين عاماً من شتات الشعب في تيه الأرض، والحصاد ذراع مقطوعة وبطن مثقوب ينزف صديداً ودماً ورصاصة ما تزال في العمود الفقري.

ان حكايتي بسيطة وعادية في زمننا. حتى الخارق والاستثنائي والمعجز، صار في حياة شعبنا مألوفاً ألفة شروق الشمس وغروبها. في قرية «عينا بوس» شاهدت النور. وفي حيفا، فيما بعد، شاهدت الظلام والنار. ابي فلاح يملك ارضاً صغيرة في القرية. كان يزرعها خضاراً وحول الأرض تقوم ست شجرات زيتون «شجرتانين ودالية وثلاث شجرات رمّان. محصول الأرض لم يكن يكفي العائلة التي تكاثرت مع الزمن تكاثر الارانب حتى صار عددها تسعة، لذا هاجر والدي إلى حيفا ليعمل سائق سكة حديد لدى الانكليز.

حدث ذلك في أواخر عام ١٩٣٥.

لم نهجر بيتنا في قضاء نابلس. في الاصياف كنا نعود إليه. بيت أبيض من الحجر الصلب مسقوف بالجذوع والشوك والعُضار الرمادي. أمي وأبي بنياه من حجارة وشجر الطبيعة فوق تلة مطوقة بالغابات وكروم الزيتون. بعد ان تنتهي إجازة والدي يتركنا في عينا بوس ويعود إلى حيفا. وفي أواخر الخريف بعد

أن تجني الاسرة خيرات الأرض وزيت الزيتون، تحمل المؤونة وتذهب إلى بيتنا في حيفا.

●

لا أذكر الكثير من أحداث طفولتي الأولى. الطفل الثالث بين أربعة ذكور وخمس بنات يكاد لا يتمايز ولا يُستثنى. انه يشبه شجرة في بستان كثيف أو موجة في بحر.

البيت الحيفاوي كان واسعاً وجميلاً. حديقته مغطاة بالورود واشجار البرتقال والرمان على مسافة منه البحر ومن الشرق جبال الكرمل الخضراء. يروي أبي عني بعد أن كبرت أنني كنت طفلاً يحب الأمور العملية. يشتري لي ألعاباً فأفككها في اليوم الأول ثم أحاول تركيبها من جديد. كان يسميني «الميكانيكي الصغير»، ويقول أيضاً بأنني كنت أنانياً، أكره البنات وأضرب أخواتي بقسوة.

وفي السهرات بين اعمامي والجيران يتهكم على خيباتي في الصيد، وكيف كنت اشتري العصافير من الصيادين أو أعود ومعي حشائش من الزعتر والجرجير والتين بدلاً من الطيور.

أمي كانت تقدم صورة أكثر اثارة للسهارى والاقارب: نافذ ولد غريب الاطوار لكنه من سلالة الكولونيل محمد. لم يشترك في شجار مع أولاد الحارة إلا وكان المنتصر. فيه الكثير من خاله. صحيح أنه غير أليف على ما يبدو في وجهه، لكنه من الداخل صافٍ كالنبع ومستقيم مثل حدّ السيف، لا يكذب ولا يسرق.

كانت أمي تصرعنا بسيرة أخيها الملازم محمد والتي رفعته إلى رتبة كولونيل يقاتل في جيش روميل، ويحقق للالمان كل انتصاراتهم على الانكليز في العلمين وليبيا وشرق السويس.

كنت استمع قبل النوم إلى هذه الحكايات، وإلى روايات أمي عن خالي والمعارك الوهمية التي يخوضها. وما كنت لأسأل ان كانت هذه القصص حقيقية أم من خيال أمي. كانت ترسو في أعماقي. ومع الزمن رسمت في رأسي صورة اسطورية عن خالي: البطل المحارب والذي لا يُقهر.

●

البلاد وما يجري فيها كانت تؤرق الناس. فلسطين تحت النار: نار الانكليز ونار اليهود. أبي الموظف عند الانكليز كان يكره السياسة ويحايد عنها. لقمة العيش لتسعة أفواه وضعت الرجل على هامش الحرائق. انه يستيقظ مع الفجر ليقود قطاره وفي أواخر الليل يعود منهكاً. رجل متدين يصوم ويصلي ويدعو الله كي يحفظ الاسرة من الشر والفساد والجوع. وعلى النقيض منه كانت أمي. امرأة قوية معتدة بأخيها الذي يقاتل عنّا ويفضح حياد أبي. عواطفها مع الالمان والمفتي. انها تحكي بصوت عالٍ عن جرائم الانتداب الانكليزي وانحيازه مع اليهود. تتحدث عن بربرية جيش الاحتلال في صفد: كيف ان الجنود البريطانيين لم يتركوا باباً ولا شباكاً إلا وكسروه بعد مظاهرات الاهالي. وكيف أغاروا على البيوت فأتلفوا الأمتعة والأواني والأثاث. خلطوا المؤن ببعضها البعض وألقوها على الأرض، وسكبوا الزيت فوق الحنطة، والسمن فوق الحبوب والطحين والبترول، وكيف حطموا المتاجر ومحتوياتها، والقوا المواد السامة في آبار الشرب، ثم احرقوا عدداً من البيوت، وسلبوا النقود ومصاغ السيدات، وداسوا القرآن بأرجلهم: لقد اعدموا الشيخ فرحان السعدي وهو ابن ثمانين عاماً لأنه يحتاز بندقية قديمة كانت معلقة على جدار غرفته. اعدموه في شهر رمضان استفزازاً للمسلمين وتحدّياً لهم. واثر ذلك استنفر المئات من الاهالي الشباب والتحقوا بقوات الانصار المقاتلة في الجبال.

كان الأب يتأفف من هذه الحوادث: ما لنا ومال السياسة يا امرأة. العائلة

أهمّ من السياسة. نريد ان نعيش بسلام ونأكل خبزنا بهدوء، الشيخ القسّام طلع إلى الجبل وأعلن الجهاد واستشهد – الله يرحمه – بدون نتيجة. هل نحن أقوى من القسام؟ وتردّ أمي بعنف المرأة التي تستبطن رجلاً: يلعن أبو اللقمة المغمسة بالذل. أي والله. والله. إذا اخذ اليهود فلسطين ستكون حياة الكلاب أفضل من حياتنا.

ويجيب أبي: عندنا بيتنا في عينا بوس. وترد: هؤلاء اليهود سيأخذون كل شيء وانكليزك أصل المصائب. يا رب ترجع الكولونيل محمد حتى يلعن أبو الانكليز واليهود مع بعضهم البعض. يصمت ابي على مضض. ينهض إلى صلاة ما قبل النوم، ثم يستلقي في فراشه ويدخن سيجارة وهو يهجس: إذا عاد ذلك الكولونيل – الشبح فسيأتي الخراب على يديه.

□٢□

يوم أصيب في وادي النسناس وجاءنا الخبر، صرخت أمي: آخ يا ويلي. انكسر ظهرنا. وتحت نيران القناصة، جرت وهي حامل في شهرها السابع .كانت تهرول وهي تعول وتصيح رافعة قبضتيها نحو السماء: انكسفت شمس فلسطين. راح الغالي راح. وين الرجال وينها! آه. يا ذلّنا من بعدك.

صرخوا بها ان تعود لأن الوادي مطوّق، والجريح الذي سقط صار فخّاً لكل من يقترب منه. لم تبال ولم تسمع. كانت تندفع بجسدها الضخم كاوزة يطاردها الموت، وهي تزغرد صاعدة سفح الكرمل المشجر. أنا وأخي ياسين تبعناها ونحن نبكي.

قبل أن تصل إليه بثلاثين متراً، قطعت رجلها شظية قنبلة. زحفت وهي مخضبة بالدم وعانقته. كان ما يزال حياً وجرح صدره ينزف.

ما أتذكره جيداً هو مستشفى حيفا. خالي مصاب بطلقة في صدره وأمي مقطوعة الرجل. رجال يدخلون ويخرجون. وممرضات يتحركن بسرعة في ردهات المستشفى يحملن الضمادات والمصل. كان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً. وكنت اجلس على حافة السرير قرب الكولونيل الأسمر المثقوب الصدر. ابي واعمامي واخوتي يتنقلون بين غرفة أمي وغرفة خالي الذي ما يزال بكامل وعيه. وحوله جماعة من فدائيي دفاع فلسطين الذين درّبهم بعد هربه من الجيش الألماني، لكنه كان يتنفس بصعوبة وهو مستند إلى قاعدة السرير الخلفية. عندما حضر الصحفيون ليسألوا قائد حرب عصابات الجبل عن الثورة التي انتهت بنهايته. قال الطبيب معترضاً: الجريح متعب ولا يحتمل الأسئلة.

كان مدركاً انه سيموت. هذا الفراغ في صدره كان يحسّه وكأنه فراغ اخاوية. بين حين وآخر كان يطلب ماء ولكن الممرضة كانت تكتفي بمسح شفتيه الجافتين بخرقة مبللة. كان الماء يساوي الموت لجريح ثقب الرصاص رئته اليسرى وكبده.

ورغم ذلك أصرّ بعناد على مقابلة الصحفيين.

عندما سأله صحفي انكليزي إن كان يعتقد بأن هذا النمط من العمل الفدائي يحرّر فلسطين، نهض قليلاً. ساعده في ذلك أحد المجاهدين. كان في عينيه بريق النمر، لكن صوته وحركته كانا واهيين. لقد تحدث بصعوبة عن فلسطين أرض الانبياء والشهداء. الأرض التي لم يتوقف الصراع فيها يوماً إلا ليبدأ من جديد من زمن يشوع بن نون حتى عز الدين القسّام. وتنهد فأحس بالاجهاد: كانت المعارك سجالاً بين اليهود والعرب. قد لا نحررها نحن الآن لكنها لن تكون لليهود أو للانكليز إلى الأبد. الفدائية والجهاد هي النار والمهم ان تظل هذه النار مشتعلة. كان يتنفس من ثقب الجرح: المهم ان تتابع الأجيال الخطوات التي خططناها. نحن تابعنا ثورات الـ ١٧ والـ ٣٦ والاجيال القادمة تعرف درب الدم لأنها نمت على هذه الطريق.

وسأله الصحفي: من أين يأتيك هذا اليقين ما دامت كل ثوراتكم قد انتهت إلى الفشل؟

وقال وهو يشير إلى صدره: من جرحي. نحن قوم نحب الموت لأننا نؤمن بالجنة. الشهيد عند المسلمين يذهب إلى جنة الخلد. هذا أولاً.

وعلى نحو فاجأني فيه، مدّ كفه العريضة المرتعشة ووضعها على كتفي، ثم نظر بعمق واعتداد فتلاقت عيوننا: ثانياً. انظر إلى هذا الشبل. ان هؤلاء لن ينسوا. نحن العرب عندنا مثل يقول: البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين عاماً. ومع ذلك هذا البدوي مستعد لذبح ابنه ليطعم ضيفه الشهم. أما من يرفع السيف في وجهنا فليس له إلا السيف. واستطرد بحشرجة: سأقول لك شيئاً خاصاً انا اعتقده. أتعلم ما هو؟ نحن العرب ننجب كثيراً وانتم تعتقدون ان ذلك بدافع الشهوة. أبداً. نحن ننجب كثيراً لأننا نموت كثيراً. كان واضحاً أنه يرى الآن اشباح الموت وراء امواج عينيه اللتين راحتا تجولان في وجوه الناس المحيطين به: الموت يهددنا ويطوقنا. ينبغي أن تكون العائلة كبيرة حتى لا ينقرض النسل.

وضغط على كتفي وهو يحشرج: أين فدائيي الدفاع. آه. يا إخوتي. يا إخوتي. مدّوا اذرعهم فسقط رأسه بين ايديهم.

وصرخنا..

لكنه كان قد مات. وارتفع التكبير بأصوات راعدة وجريحة اختلطت مع جهشات النحيب في ردهات المستشفى وممراته.

●

بعد اسبوعين خرجت أمي من المستشفى وهي تدق الأرض بعكازها. المرأة – اللبؤة والتي كانت شخصيتها تطغى على شخصية ابي، والتي تزن أكثر من تسعين كيلو غراماً. المرأة التي كانت ناهضة كالمفضية. تتكسر الآن فوق عكازها فتبدو كشجرة ناحلة جذعها ينحني نحو الأرض. لقد انكسر ظهرها كما قالت بعد سماع خبر اصابة اخيها، وربما ما كانت بحاجة إلى هذه الساق الاصطناعية لتهوي. لقد اصابها موت كولونيلها في مجرى دفق الدم عبر الاعصاب فانهدمت. حزن والدي وأسف، لكنه في اعماقه شعر بالراحة لأن سطوة اللبؤة والتي كان يسميها الفرعونة، قد همدت. كان جدارها اخاها، وكانت تتوهم بأنه سيقود شعب فلسطين بعد استشهاد القسام ليدحر بهذا الشعب اليهود والانكليز؛ وعندما كان أبي يراوغ في مواقفه مبشراً بالسلام العام والاسرة والحياة اليومية لاعناً السياسة أمّ المشاكل والمصائب، كانت تلك الام تنهره وتتهمه باللاوطنية.

الآن سقط الجدار، وعادت امي قعيدة تمضي معظم وقتها ساهمة في فراشها، وفي أواخر الليالي تغني وتبكي بهدوء حزين.

●

على مدى اسبوعين والعائلة تقوم بخدمتها والعناية بها. حتى والدي الذي

كانت تناكده وتشاحنه فيهرب منها إلى المقهى أو السهرات العامة، لازمها وخفّف من مصابها.

أنا وهي كنا ننام معاً. انها تعتقد في قرارتها بأنني وريث خالي. بعد أن هدأت حالتها النفسية وبدأت تعود إلى طبيعتها، كانت تروي لي في الاماسي كيف نظم الكولونيل محمد ودرب الفدائيين على صناعة المتفجرات ورمي القنابل، كما روت لي بطولاته في جيش رومل وجبال الكرمل بعد هربه، وانه بعد أن احتل موقع «حسبة المدار» في حيفا مع مجموعة فدائيي الدفاع، طوقه الجيش الانكليزي بقوة كبيرة من المصفحات فاضطر للانسحاب إلى وادي النسناس، وهناك ظل يقاتل كالنمر من صخرة إلى صخرة ومن شجرة إلى شجرة إلى أن أصيب بطلقة قناص.

سألتني عن لحظاته الأخيرة في المستشفى فرويتها لها، وقلت بأنه وضع يده على كتفي وضغط وتلاقت عيوننا، وبكيت، وقلت له لا تمت يا خالي فنحن لا نريدك أن تموت، ثم حكيت لها بأن فدائيي الدفاع اقسموا بالدم وهم يبكون ألا ينسوا ما تعلموه منه.

□٣□

مع اقتراب الاربعين يوماً على موت خالي قالت أمي: جهز نفسك للذهاب إلى المقبرة. ستذهب إلى سفوح الكرمل وتأتي بالريحان الأخضر ثم تشتري من السوق البخور لقبر خالك المرحوم.

كانت قد بدأت تتحرك وتخرج من البيت إلى الحديقة وبيوت الجيران. وكان واضحاً أنها ابتدأت تسترد روحها القوية، متجاوزة ما أمكن الصدمة القاتلة التي هشمت عنفوانها ومثلها الأعلى.

غير أن الانكسار الداخلي كان يبدو من خلال تهداتها وضربات عصاها التي تدق الأرض بايقاع يتراوح بين الهدوء الرتيب والعصبية المباغتة.

إنها ما تزال متينة البنيان، وناضرة. تلوح في عيني جميلة وشامخة كنجمة تتلألأ، رغم الاصابة التي ضربت عقلها وجسمها. كانت غبطتي بلا حدود وأنا أراها تغادر فراشها وتتموج بيننا ثم وهي تجهز نفسها لزيارة قبر خالي في يوم الأربعين.

قبل يوم الزيارة ذهبت مع ابن عمي إلى سفح الكرمل القريب، قطعنا حزمة كبيرة من اغصان الريحان واثناء العودة اشتريت أوقية بخور أبيض.

مع الفجر كنا نتوجه إلى المقبرة. وإذ سألتها عن اخوتي قالت بأنهم سيتبعوننا مع شروق الشمس. كانت تتكىء علي وعلى عصاها والمدينة لم تستيقظ بعد إلا من باعة الحليب وعربات الخضار المتجهة إلى السوق عبر شارع الخنطور المحاذي للبحر.

تحت رطوبة الصباح الهابطة على المدينة والبحر وغابات الكرمل، راحت تحدثني حديثاً غريباً عن شجر الريحان وأرواح الموتى ومعنى زيارة القبور في هذه الاوقات المبكرة.

حكت لي عن رائحة الريحان التي تنعش روح الشهيد فتستيقظ من نومها وتخرج لترفرف فوق القبر، وسألتها عن مخدع الروح الذي تنام فيه، فقالت بعد أن تعود من حساب العقاب والثواب تنام في التراب قرب الميت لتؤانسه ثم تروي له ما حدث معها في حضرة الملائكة، وعندما يشعر بالحزن والملل تخرج به إلى الفضاء والريح تنزهه ثم تعوّد به إلى القبر، وفي مواسم الاعياد والزيارات تستنشق له رائحة الريحان والزهور ليظل منتعشاً.

وهي تروي لي هذه الاساطير كان يخيل لي ان الموتى لا يموتون. فقط ينامون نوماً طويلاً في اماكن بعيدة عنّا تحت الأرض.

وعندما سألتها إذا كان جميع الموتى يعيشون تحت الأرض، قالت بثقة: لا. الشهداء وحدهم يا ابني، انهم احياء ابداً وقد فضلهم الله على العالمين جميعاً. الاحياء والاموات.

أنا لا أحب رائحة الريحان، وأنا احمله اشعر برائحة الموت. انه يضمخني بعبق كئيب لكأنني ميت وأنا أسير. حتى وأنا أقطعه من غياضه في الكرمل كان يخيل إلي انه ينمو ويعيش على أضرحة القبور. انه يذكرني بالموتى وغسلهم ورائحة البخور والصلوات والجنائز.

كنت أتصوّر أن سفوح جبال الكرمل كلها قبور ومدافن من عصور قديمة من كثافة حجم الريحان، وانطلقت امي تتحدث عن ارضنا وبلادنا التي غطتها الدماء من زمن داوود وجوليات حتى الصليبيين.

وعلى غير انتظار روت شيئاً مدهشاً وغامضاً عن رحلة الروح التي عبرت من جسد جوليات إلى القسام وعبد القادر الحسيني ثم تقمصت الكولونيل محمد.

يبدو أن الحياة والموت يتساويان في رأسها، فهي لا تريد ان تصدق أن اخاها، الذي تماثل في تفكيرها مع الإله الحي، قد تحول إلى تراب بعد موته. من أجل ذلك استفاضت، ونحن نستريح قبل وصولنا إلى المقبرة، في الحديث

عن الروح القلقة التي لا تهدأ. الروح التي تتقمص جسم بومة لانثى تنعب فوق الضريح منذ الغروب حتى شروق الشمس، والتي سنراها فوق الصندوق الحجري لقبر خالي.

إذ دخلنا بوابة المقبرة نبهتني أن أقرأ الفاتحة ثم سمت باسم الرحمن، وقرأت الفاتحة فطارت البومة عن حافة أحد القبور، ووقفت على الهلال النحاسي لرأس قبة أحد الاولياء وراحت تنعب. وقالت أمي بعد ان انتهيت من قراءة الفاتحة: ارأيتها! انظر إلى ريشها الرمادي والاحمر. الرمادي يشير للموت والاحمر للدم. تلك هي بومة الثأر. انها توقظهم حتى لا ينسوا الدماء. دماءهم المغدورة.

بغتة وضعت يدها على عضدي: تلك هي روح محمد التي ستدخل فيك يوماً!

قالت ذلك ونحن نحاذي القبر الأبيض. مسحت الضريح وقبلته، ثم ندهت بي أن أجمع الحطب لاشعال النار للبخور بينما باشرت بغرس اغصان الريحان حول القبر.

اتقدت النار. قالت: ابحث عن المجمرة وضع الجمرات فيها.

كانت تطوق الضريح بشجر الريحان وهي جاثية على ركبة واحدة والساق الأخرى المصابة ممددة على التراب. وأنا منهمك بإيقاد الجمرات، سمعتها تناجيه وتعاتبه على موته وعدم احتراسه اثناء القتال لكأنه حي الآن ويسمعها. ناولتها المجمرة فأخذت حفنة بخور وذرّتها فوق الجمرات فهجت الروائح وانعقد الدخان في الفضاء. قالت أمي: هذه الروائح تنعش الروح فتقوم، وإذا كانت في السماء تهبط على اجنحة الروائح. ثم مدت يدها نحوي وقالت: تعال قبلّ هذا القبر واقسم امامه انك ستكمل طريقه وتحمل بندقيته التي خبأتها لك في الحديقة. تعال. هيّا.

جثوت أمام الضريح وبدأت أردد بارتعاش كلمات القسم التي انطلقت من فمها كآيات.

كنت أتمتم وراءها ببلاهة فى مرتبك أمام هذا المشهد. كنت خائفاً أرتعد في اعماقي من برودة الفجر التي اختلطت مع حكايات أمي عن الموت والثأر والبومة والروح الهائمة. وإذ ابتدأت صلواتها وأدعيتها اجتاحت بدني موجة من الرعشات. كانت تمسّد حجارة القبر وتمسح وجهها به، وهي تبارك الروح التقية التي ذهبت إلى السماء طاهرة ومقدسة، ثم عادت إلى الجسد لتخبره بأن الله راضٍ عنه. ثم قرأت آية «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ...» وبعد أن اكملت الآية همست له: كان لك يا حبيبي اسوة بشهداء بدر والخندق وأصحاب رسول الله الذين قضوا في سبيل الاسلام. لقد بدأت تهتاج وازدادت حركاتها عصبية فَعَلا نواحها وندبها. كانت واقعة تحت سطوة أحاسيس غريبة ونوبات فككت على ما يبدو توازنها العقلي؛ وتحت تأثير هذه الحالة راحت تصيح بصوت عال: آه. آه. يا محمد يا زينة شباب فلسطين. نحن لن ننساك يا حبيبي. الدم لا يصير ماء. ثوبك الدامي وبارودتك عندي. خبيتها للشبل اللي راح يوخد بتارك. دمك معلق في رقبتنا يا غالي. معلق على الاشجار وعلى الاحجار وعلى جناح الطير الطاير فوق البلاد. آه. يا حسرة قلبي عليك يا غالي يا نسر الجبال ويا سبع الفلا.

كانت ترش البخور على الجمرات فتؤج الروائح، وكانت الرائحة تزيد هياجها. وتحت تأثير انفعالاتها جذبتني اليها وضمتني إلى صدرها وراحت تهذي وأنا ارتعد بين ذراعيها: اياك ان تنسى. دمه برقبتك. إذا نسيت لن تكون من ظهري ولا من دمي. إذا نسيت سيقع عليك غضب السماء والأرض. ستلعنك السماء وتقتلع عينيك بومة الثأر. يا نافذ كن قدّ الحمل في يوم الصعاب. إذا نسيت يا نافذ أنت واخوتك استباحوا أرضنا وعرضنا إلى يوم القيامة. آخ. آخ. يا محمد صرنا يتامى بعدك. البيوت هدموها والحقول حرقوها. الأرض

والسما عم تبكي على الصبايا المتل ورد الكرمل. الصبايا اللي سبوهن اليهود واغتصبوهن..

وابتدأت تضرب الأرض بيديها: قم يا زين الرجال من قبرك. قم وشوف. آي وين الرجال؟ وين النخوة؟ وين الدم؟ الدم ينادي من قبور الشهداء. دم القسام ودم عبد القادر ودمك يا محمد. قوموا يا شهدا فلسطين. البسوا قمصان الدم وانشروا الرايات الحمرا فوق تلال فلسطين الجريحة. آخ. آخ. آخ.

أصوات ندبها التي اختزنتها خلال اربعين يوماً تجاوبت كموجات فجائعية، مجنونة في كل أرجاء المقبرة. كانت الشمس قد اشرقت، وحضر اخوتي والجيران. وكانت امي قد دخلت طوراً شبيهاً بأطوار الجنون والهستيريا، وراحت تمزق ثيابها وتنتف شعرها وتمرغه بتراب المقبرة. أسرع الاهل والنسوة وطوقوها: اهدئي يا ام نافذ اهدئي. هذا حرام يا مريم. فلسطين ومحمد لا يحييهما البكاء.

كنت أرتعد من خوفي وحزني. أنا واخوتي انخرطنا في البكاء ونحن نرى أمّنا شبه عارية وممرغة بالتراب. بدأت تزغرد. هدأتها النسوة: من أجل روح الشهيد كفّي. هيا انهضي. من أجل محمد والشهدا قومي. النساء زغردن مع أمي: ويها. ويا الشهيد السامع بقبرك. ويها. ويا فلسطين الناهضة حولك. ويها. ونحنا بنات وشباب بفلسطين بعدك. ويها. حلفنا بالأرض والدم والنبي المختار تاناخد بتارك.

تماوجت الزغردات من افواه عشرات النساء القائمات حول أمي بين قبور الشهداء. زغاريد رددتها بقوة الاعصار أودية وهضاب الكرمل فتمددت آخذة معها عاصفة الألم والشقاء، والدموع التي سالت فوق الوجوه الحزينة. فجأة نهضت أمي. استعادت قوتها وانجلى حزنها. على وجهها الذي كان ممرغاً بالدمع والتراب انعكست اشعة الشمس، فضاء الوجه وغمرته هالة من السكينة والسلام الروحي.

□٤□

الموت .

داهمني وأنا على أبواب الحياة . وأنا ما زلت غرّاً عكّر بحار أحلامي ، وألقى على بصري الجامح إلى ما وراء الأفق ، ظلالاً كثيفة من السواد . بعد أن تنام الأسرة أستيقظ داخل الليل .*صوت البحر يأتي كطيور خائفة . الأشياء الغامضة في الخارج وصدى الانفجارات ، كلها كانت ترمي في أعماقي فزعاً وهولاً لا أستطيع ادراكه .

كانوا يتحدثون عن الاحياء العربية واليهودية في بيتنا والمدرسة . الاحياء المفصولة والمغلقة والمتاريس والغارات التي يقوم بها اليهود على الاحياء العربية وغارات مجاهدي الشعب . وفي ذلك الوقت انتشرت شائعات عن نوايا الانكليز في مغادرة البلاد وانهاء الانتداب .

وفي ذلك الوقت كنت أشعر أنني اترنح على سطح زورق في عرض البحر ، في رأسي احلام وصبوات عن السفر نحو بلاد بعيدة ، الوان وصور حول الحب واللعب والحرية والتجوّل في الشوارع والحدائق والمدن . مدن فلسطين ومدن العالم ، لكن عالمي كان ضيقاً ومحدوداً بين البيت والمدرسة وأسواق حيّنا الصغير . داخل هذا العالم الضيق همدت الاحلام واستكانت . ومع تفاقم الحالة والتوتر في البلاد بدؤوا يمنعوننا من الخروج والذهاب إلى المدرسة والأسواق . كانت المدينة تغلق مع غروب الشمس وينكفيء السكان إلى منازلهم . كنّا في قلب الرعب .

كانت منظمة الارغون اليهودية قد بدأت حملة تفجير القنابل في مناطق التجمعات السكانية والأسواق لابادة العرب وارغامهم على الهجرة .

إنني اتذكر ليلة تموز الرهيبة . الليلة التي فجر فيها اليهود عشرات القنابل في حيّنا وأدت إلى قتل وجرح أكثر من مئتي امرأة وطفل وعجوز من سكان المدينة . استيقظنا على أصوات الانفجارات في السوق والساحات وداخل المنازل الآمنة . كان الدوي يختلط بأصوات الرعب والهلع ، وكان الناس يتدافعون ويتصادمون ويسقطون ، بينما كانت الشظايا تمزق وجوههم وصدورهم وارجلهم فيهوون على

الارصفة وفوق النفايات وتحت الجدران . وهناك كانوا يختلجون بدمائهم اختلاج طيور فاجأها القتل وهي نائمة . كنت في حضن أمي ارتجف من الفزع ، وكان اخوتي يجرون داخل البيت ويزقون كالفئران مندفعين تحت الأسرة والكراسي ونحو الزوايا .

وصرخت الام : لا تخافوا يا أولاد . اهدؤوا يا روحي . الله يلعن أبو الانكليز والّلي جابهم على بلادنا . لولاهم اليهود كانوا مثل الكلاب . واندفعت تحجل بقدم واحدة لتلمّ اخوتي وتطوقهم شبيه دجاجة داهم صغارها حدأة .

كانت وجوه البنات في لون الشمع . اخواي الآخران كانا يرتجفان ويتصببان عرقاً وهما يبولان في ثيابهما .

وابتدأ رشيد البالغ من العمر عشر سنوات يرتعش ويصرخ : ماما . اليهود سيذبحوننا . لماذا لا نذهب ونختبئ في البئر !

وقالت أمي : لا تخف يا حبيبي . اليهود خوافون . يضربون ويهربون . أهدأ يا حبيبي أهدأ . كنا حولها ، وبين ذراعيها ، وتحت فستانها . وقالت اختي سامية مؤكدة ما قاله رشيد : ماما . البير أكثر أماناً من هنا .

وردت أمي وهي تمسح شعر اختي وتضمها إلى صدرها : لا . لا . يا حبيبتي إذا وقعت علينا قنبلة ونحن في البئر نموت جميعاً . أنا معكم يا قلبي وهالحين يوصل ابوكم من الشغل . كنا مكوّمين في الغرفة المعاكسة لجهة الانفجارات ، في الزاوية الغربية ، نحتمي بالديوان والكراسي وصندوق عرس أمي الكبير . وفي غمرة الاصوات التي تأتي من الخارج والدوي والهلع الذي اصابنا جميعاً ، طلبت امي ان نجمع متاع البيت من الاخشاب والكراسي والطاولات ونضعها وراء الأبواب كمتاريس ، وزحفت هي من بيننا وانهمكت في اغلاق النوافذ وإحكام الابواب وهي تردد : آه . آه . لو كان خالكم الكولونيل ما زال حياً ! بعد ما مات صار اليهود يذبحوننا في بيوتنا .

●

في الصباح حضر أبي من القدس. كان مهلوعاً ومغموماً. بعد أن اطمأن علينا حمد الله وشكره لسلامتنا. روت له أمي ما حدث. كنا حوله نعاتبه على غيابه وهو يطوقنا ويداعبنا شاعراً بوطأة الذنب والتأنيب. وقالت أمي: هذه الحالة ما عادت تطاق. اترك العمل عند هؤلاء الانكليز الكلاب. يلعن أبوها اللقمة المغمسة بالدم. أولادنا اغلى من كل مال الدنيا. تصوّر لو انك عدت ولقيت البيت ركاماً واطفالك موتى!

وقالت اختي الصغيرة: بابا. نحن لا نريدك أن تتركنا وتسافر بعد الآن.

وقال أخي ياسين: لو كنت معنا اليهود يخافون منك ولا يذبحوننا.

هيأنا طعام الفطور وجلسنا نأكل. حضور أبي اعطانا دفقة أمان. تحدث والدي عن الأخبار السيئة التي سمعها من الركاب في القطار. اليهود يريدون كل البلاد وعينهم على حيفا لأنها مرفأ وانهم سيهاجمون الانكليز إذا تدخلوا لحماية العرب.

وردت أمي: الانكليز سيسلمون جميع مواقعهم لليهود قبل انسحابهم.

وقال أبي بأن البلاد تغلي وتهدد بالانفجار والناس خائفة وتفكر بالهجرة بعد ضرب يافا وحيفا والقدس، والثوار في الجبال تشتتوا وهم محاصرون ويعانون من نقص السلاح والذخيرة. وقد بدأت عصابات اليهود بتدمير السكك الحديدية وتفجير القطارات وأنابيب النفط.

في الليل سمعت أبي يروي لأمي بأن قطاره سيحمل بأسلحة انكليزية لتسلّم لليهود في منطقة العفولة تحت حماية ضابط مخابرات بريطاني متعاون مع الصهاينة، وعندما سألته ماذا سيفعل في هذه الحالة، قال: لن أقود القطار. منذ الآن سأترك العمل وأستقيل.

□٥□

الزلزال.

كانت الأرض فوقه تترنح وتميد، مقذوفة ومتصادمة عبر الاتجاهات الأربعة، وكان الشعب قد أصيب بحالة من الدوار وضياع بوصلة الرياح.

كانت المباغتة تأتي كهزات أرضية متقطعة، قطباها الانكليز المتواطئون، واليهود المسلحون حتى الاسنان لاجتياح فلسطين، والمدربون على ذلك سياسياً وعسكرياً منذ نصف قرن. وفي ذلك الوقت كان العرب ضعافاً ومنقسمين وبلا سلاح. كانوا يشبهون قبائل زراعية آمنة في أرضها داهمها الغزاة من كل حدب وصوب.

تحت هذه الغمرة الجائحة، دفاعاً عن الأرض والوطن، عمت الاضرابات والمظاهرات كل انحاء البلاد، وكانت العمليات العسكرية لمجموعات الجهاد المقدس في الريف والمدن تتركز على معسكرات الجيش البريطاني، وبعض المستعمرات اليهودية، وشجع السكان والمجاهدين تسلل اعداد من مقاتلي البلاد العربية المجاورة إلى داخل فلسطين.

وفي الأفق لاحت بشائر التقسيم برعاية وتحريض بريطانيا، في الوقت الذي تفاقمت فيه الهجرات اليهودية غير الشرعية تحت سمع وبصر دولة الانتداب بهدف الاجتياح وتهويد البلاد.

لقد حاولت بريطانيا احتواء الثورة التي عمت وانتشرت كالنيران، ولعبت مع القيادة الوطنية لعبة المفاوضات وبذلك استطاعت جرّها إلى هذا المستنقع. وخلال ذلك صدر من الحكومة البريطانية بيان رسمي يلغي مشروع التقسيم لأنه غير عملي. ورغم هذه المراوغة والتواطؤ استمرت الاضطرابات واستمرت لعبة المفاوضات. لقد حدد العرب مطالبهم في: الاستقلال السياسي، والتخلي عن وعد بلفور في الوطن القومي اليهودي، وانهاء الانتداب. وبعد صدور الكتاب الأبيض الذي حدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، استبشر العرب خيراً، غير أن دولة

الانتداب ما لبثت ان نقضت ذلك وتدفقت الهجرة اليهودية، واعلن قادة العصابات الصهيونية ان فلسطين ستكون دولة يهودية، واليهود لن يستغنوا عن أي قسم منها حتى ولو كان في قمم الجبال أو اعماق البحار.

وفي الوقت الذي كانت فيه فرق الكوماندوس والمظليين اليهود تتدرب بقيادة رجل المخابرات البريطانية تشارلز وينجت لدفعها بعد رحيل الانكليز إلى المواقع الاستراتيجية ومجابهة الثوار. كان العسكر الانكليزي يطارد أي عربي يحمل السلاح فيعدمه أو يزج به في السجن.

●

الشمس تميل نحو الغروب كسيفة. والثورة تهتز تحت ريح الانقسام والمساومات كأوراق الخريف. والقيادة المتواطئة والانتهازية تنوس بين القتال والمفاوضات السرية والعلنية. وفي ذلك الوقت المهتز والمظلم، كان الشعب شعوباً وقبائل، وكان اعزل ومشتتاً ومغلوباً على امره.

□٦□

الحوار كان حاداً في تلك الليلة داخل الأسرة. تطور حتى وصل حافة الشجار.

كان قرار الوالد ان نرحل بعد أن بدأت قوافل المهاجرين تترك منازلها وأراضيها وتتجه نحو البلاد العربية المجاورة.

أبي وأمي كانا شبه متفقين على الرحيل إلى عينا بوس وترك حيفا إلى الأبد بعد أن استقال الأب من عمله.

وكان واضحاً أن المعركة غير متكافئة رغم الاضطرابات والاشتباكات التي تقوم بين الفدائيين وعصابات اليهود والانكليز.

اقترح والدي الهجرة عن طريق البحر إلى لبنان، وبذلك يتاح لنا ان نحمل معنا الاثاث الغالي، كما أن طريق البحر أكثر اماناً وراحة للاطفال والأم الكسيحة. واعترضت أمي قائلة بأن هناك شائعات عن اغراق بواخر المهاجرين في عرض البحر تقوم بها الهاغاناه. وقال الأب بأنه يعرف بعض الضباط الانكليز وعن طريقهم يمكن تأمين سلامة السفر.

وعندما اعترضت الام على أن الانكليز لا يؤمن جانبهم، قال أبي بأن اليهود لا يمانعون في هجرة الناس وربما كانوا متفاهمين مع الانكليز على ذلك.

وكعادتها حاولت أمي أن تفلسف المسألة سياسياً فقالت: طبعاً. المهم ان تفرغ فلسطين من العرب فيأخذها اليهود لقمة سائغة.

ورد والدي: طيب. هل نستطيع نحن أن نمنع ذلك؟ الا ترين الشعب كيف ينجو من الموت ويهرب!

وفي لحظة غريبة ركب أمي عناد مفاجئ: والله سوف لن نخرج من هذا البيت. هذا بيتنا وهذه بلادنا ولن نتركها وليكن ما يكون.

كنا منهمكين في تجهيز الحقائب وجمع الاثاث الخفيف وترتيبه داخل العلب والحقائب والصناديق . لم يصدق أبي ونحن ما قالته الأم . اعتقدنا انها غير جادّة وانها تجتاز إحدى نوباتها الوطنية . وعندما طلبت منا أن نكفّ عن جمع الاثاث ، قال ابي : مريم هل جننت؟ الا تدركين ماذا يعني البقاء هنا؟

– هاه . قل لي ماذا سنفعل في البلاد الغريبة ! سنحيا حياة ذليلة كحياة الشحاذين . وماذا سيقول الناس عنا هناك ! انظروا إليهم لقد تركوا بيوتهم وارضهم وباعوا بلادهم لليهود .

وتوقف أبي ونظر إلى أمي باندهاش : أأنت جادّة فيما تقولين؟

– نعم جادّة . ولن نرحل .

– ولكن هل نحن أفضل من اهلنا . كوني عاقلة يا امرأة . الا ترين ماذا يفعل هؤلاء اليهود المتعصبون في المدن التي يدخلونها . انهم يحرقون البيوت ويذبحون المذنب والبريء . من ينجينا من قنابلهم وسكاكينهم ! بعد ان نصل لبنان نذهب إلى بيتنا في عينا بوس .

صاحت أمي : تعال يا نافذ ساعدني على النهوض . اتجهت نحو الأمتعة والحقائب وراحت تفرغها وترمي بها نحو الأرض والأسرة . كانت حركاتها عصبية وخلال انهماكها بالأثاث كانت تنثر شتائمها على اليهود وعلى العرب الذين تخلوا عن أرض محمد والمسيح فتخلى الله عنهم .

وفي تلك الليلة حاول أبي اقناعها بالرحيل لأن البقاء سيؤدي إلى الهلاك . لكن تلك الأم العنيدة عناد الصخرة ، كانت ترفض السفر باصرار ، وهددت بأنها إذا ارغمت على ذلك فستحرق البيت حتى لا يسكنه هؤلاء اللقطاء الذين جاؤوا من وراء البحار وهم لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم ، أولئك الذين وسمتهم بأنهم ولدوا سفاحاً في شوارع وساحات البلاد الاجنبية .

استمرت ، وهي تعيد ترتيب الاثاث ، في البربرة عن الشرف والكرامة والشجاعة المفقودة ، وقالت بأن الذين يتخلون عن البيت والأرض لا يهمهم ان يبيعوا الشرف والعرض .

كان أبي يترنح بين الغضب والمرارة . وكان يدخن ويزفر وهو ينظر عاجزاً أمام هذه المرأة التي وضعت عقلها خارج الواقع الصلب والجارح . حاولنا أنا واخوتي ثنيها عن عزمها وافضينا برغبتنا في الرحيل اسوة بالناس الذين رحلوا ، لكنها اخرستنا قائلة : انتم صغار لا تفقهون شيئاً . لو رحلنا ففي المستقبل ستلعنوننا .

شرح أبي كمحاولة أخيرة بأن لا جدوى من البقاء ، وإذا ما احتل اليهود الحي فسيعرفون ان الكولونيل محمد هو من اسرتنا ، وهكذا فلن ننجو من المذبحة ، ثم تحدث عن وضع البلاد وقلة السلاح وتشتت الثوار . وصرخت أمي : دعك من هذا الكلام . أنت لا يحق لك أن تتحدث لا عن الكولونيل محمد ولا عن المجاهدين الذين يملؤون أحراش وكهوف الكرمل . ثم أنت ضد الثورة والمجاهدين فلماذا تتحدث عنهم؟

ولأول مرة ينتفض الوالد دفاعاً عن نفسه : أنت يا امرأة تضعينني مع الخونة؟ لماذا؟ عمري كله قضيته في الشقاء من أجل العائلة . من أين تعيش هذه الذراري لولا تعبي؟ انظري إلى بيتك المؤثث والمليء . ثم انت ماذا قدمت لهذا البيت؟ انت لست قاسية بل حقودة . قلبك أسود علي لاعتقادك انني لا أحب وطني وبلادي . من أجل من عملت مع الانكليز؟ اليس بناء الأسرة جزءاً من محبة وبناء الوطن؟

وقالت أمي باستهزاء : كاليهود كنت تجري وراء المال . لقد أفنيت عمرك تلهث وراءه .

– اسكتي يا امرأة . عليك ان تستحي من هذا الكلام العيب .

لا بد أن أمي كانت مستفزة على نحو ما . ولم تكن الحالة الذاتية وحدها السبب . كانت كراهيتها وشراستها تندفعان كشيطان محبوس وهي تندد بالرجل – الزوج عندما قالت . انت لست للسيف ولا للضيف ولا لغدرات الزمان . كثير الحركة قليل الفعل . الله يلعن اليوم الذي تزوجتك فيه .

كان واضحاً أن الزلزال الذي ضرب الأرض وصل النفوس. فالعائلة التي كانت آمنة وراضية أوقات السلم، هي ذي الآن في زمن الحرب تتشظى. كانت الخلية تنقسم الآن على نفسها متفسخة بفعل هذا الجرثوم الذي اندفع عميقاً داخل كريات الدم.

استمرت الأم في هجومها واتهاماتها. وردت على كلمات العيب والحياء بقسوة: العيب وقلة الحياء والشرف يمشيان في دماء اشباه الرجال الذين تقاعسوا ولم يكملوا طريق الشهيد محمد. ثم صرخت بفحش المرأة التي كسرت على زوجها: وحياة النبي محمد. النساء أفضل منكم. ولو كان السلاح بأيديهن لما ضاعت البلاد ولا تشرّدت العباد.

●

حدث ذلك كبرق أو كابوس.

اندفع والدي نحو أمي ليسكتها ويوقف سيل كلماتها النابية واضعاً كفه على فمها، لكنها هوت على الأرض لسرعة الاندفاعة. وهي ممددة لعنت أبي وشتمته: خنزير. يهودي. وهوى على وجهها بصفعة قوية.

وَلْوَلْنا ونادينا الجيران. اندفعتُ نحو أمي لأردّ عنها الصفعات. كانت تصرخ وتسب موقدة أكثر نيران الأب التي اندفعت من اعماقه وكأنها استجابة ثأر لتاريخ طويل من الاهانات والاذلال والتحقير.

عندما صفعها للمرة الثانية قال: لم اضربك في حياتي. لكنك لم تتركي مناسبة إلا وعرّضت فيّ حتى أمام الناس. صورتني أنني رجل بلا وطنية ولا شرف، وانني تخليت عن أولادي وبلادي واعمل لصالح الاجانب. حتى أولادي أرضعتهم حليب كراهيتي. امرأة قاصرة ومقعدة ومع ذلك لا تخشين الله ولا تحترمين زوجك. لم يقصر الله معك إذ كسرك لأن روح الشيطان تمشي في دمك.

كان يقف قربها وهي تحت مرمى ذراعه. من خلال دموعها وكرامتها التي جرحت تحت قبضة زوج كانت تطؤه دائماً قالت: آه يا جبان. تستقوي على امرأة قاصرة بينما الانكليز واليهود يركبونك. آه. يا حبيبي يا محمد. ليتني متّ معك في وادي النسناس!

وصرخ الرجل الجريح: سأظل اضربك حتى تصمتي أيتها الأفعى. عليك وعلى جنسك اللعنة إلى أبد الدهر. ورفع قبضته إلى اعلى. كانت قبضته ستهوى علي وأنا اغطيها بجسدي وصرخت: دخيلك يا بابا. دخيلك. لا تضرب ماما. أبوس حذاءك. دعها. انها مريضة. وصرخ بي: أيها الكلب. انهض. أهذه أم تستحق الحماية؟

وحاول جذبي بعيداً عنها. وصرخ اخوتي برعب: بابا. بابا. دع أمنا. وقلت ضارعاً: أحلفك بكل ما تؤمن به ألا تضربها.

وقالت أمي بغمغمة دامعة: استحلفه بالسترليني هذا هو إلهه.

وصحت بها: أمي. اسكتي. برحمة خالي محمد كفّي عن الكلام.

وقال الوالد وهو يبتعد ويتميز غيظاً وحنقاً:

يا ابنة الأبالسة. والله سأتركك تحت رحمة اليهود وحيدة ولن تسمعي بي بعد اليوم.

كانت اختي سامية تنادي الجيران من الحديقة، بينما انخرط بقية اخوتي في العويل.

وحضر الجيران فرأوها مكومة في زاوية الغرفة تنهنه وتمسح دموعها.

استدار أبي إلى غرفة النوم وهو يستغفر الرب ويخزي الشيطان والنساء، لاعناً اليوم الذي ابتلي فيه بهذه الفرعونة.

□٧□

الهجوم.

بدأ على حيفا في الاسبوع الأخير من نيسان بعد قرار مشروع التقسيم للاستيلاء على المدن الرئيسية وطرد العرب منها بالقوة.

عصابة الها غاناه هي التي قادت الهجوم. مركزت مدفعية الهاون على جبل الكرمل، واشترطت قبل بدء الهجوم هدنة انذار تنصّ على النزع الكامل للسلاح من أيدي الثوار والمجاهدين خلال أربع وعشرين ساعة، ثم السماح لقواتها بتفتيش الاحياء العربية لجمع السلاح مع رفع الحواجز من الشوارع وتسليم الثوار المسلحين، واشراف رجال الهاغاناه على الأمن في منطقة حيفا.

كان اليهود يسيطرون على جميع النقاط والمواقع الاستراتيجية في المدينة وجبال الكرمل عدا الميناء، حيث تتمركز قوات البحرية البريطانية. وعندما رفض المجاهدون شروط الهدنة الذليلة والتي تساوي الموت والاستسلام، ابتدأت المعركة التي زجّ فيها اليهود خمسة عشر الف جندي من قواتهم.

وفي الوقت الذي اذاع فيه الجنرال البريطاني ستوكويل قائد منطقة حيفا، انه المسؤول عن أمن منطقة حيفا، وأن الانكليز لن يغادروها حتى أول آب بعد الانسحاب النهائي لقوات الانتداب، كان البريطانيون يدبرون خديعة بالتواطؤ مع اليهود في المدينة. لقد طلب الجنرال ستوكويل من اللجنة العربية العليا أن تتريث بدخول قوات شكيب وهاب إلى حيفا لحماية العرب منعاً لاصطدامها بالقوات الانكليزية، وفي الوقت الذي أخّروا دخول القوات العربية كانوا يهيئون انسحابهم سراً قبل بدء المعركة بيوم واحد، مفسحين المجال لليهود لأخذ مبادرة الهجوم ضد الثوار العرب والاحياء العربية العزلاء من كل حماية.

كان الجيش البريطاني يتفرج على المعركة، عندما انصبت نيران خمسين مدفعاً من مدافع الهاون المركزة فوق جبال الكرمل على الاحياء العربية، التي بدأت

منازلها ودورها واسواقها تتقوض فوق السكان تحت قصف شديد متواصل. وداخل المدينة التي يزلزلها القصف، خاض الثوار قتالاً ضارياً غير متكافئ بأعداد ضئيلة واسلحة قديمة، في مواجهة قوات كثيفة مسلحة بأحدث انواع الاسلحة. كان اليهود يتقدمون في شارع ستانتون وشارع الخوري بصعوبة شديدة أمام مقاومة الثوار وقتال الشوارع الضاري.

كانوا يهدفون عبر اندفاعهم إلى محطة سكة الحديد الواقعة وسط المدينة، للسيطرة على عقدة المواصلات.

وفي الشوارع والازقة والمنعطفات وتحت الانقاض كانت الجثث ملقاة، بينما المدينة تتقوض تحت عنف المدفعية التي تنصب عليها من اعالي الجبال. كانت حفنة من الثوار العرب من الحرس الوطني تناوش اليهود من شارع لشارع بأسلحتها القديمة من البرنو والمسدسات، وشهدت سكة الحديد معركة ضارية استولى فيها اليهود على المحطة ثم ما لبثوا أن رُدّوا على أعقابهم تاركين في ساحة المعركة أكثر من خمسين قتيلاً وجريحاً.

على جبهتين كان المقاومون العرب يعملون: جبهة القتال، وجبهة انقاذ الاطفال والنساء والعجائز. ابعد الهجوم المباغت الذي جاء قبل نهاية الانذار اليهودي. واندفع الاهالي من النساء والأطفال هارعين بذعر شديد للالتجاء إلى الكنائس والجوامع، اعتقاداً منهم انها أماكن مقدسة تحميهم ولن يهاجمها اليهود. وإذ مالت كفة المعركة لصالح الهاغاناه وابتدأت تقتحم وتجتاح الأحياء العربية، اندفعت مفرزة يهودية وهاجمت كنيسة الموارنة في الحي المسيحي.

كان الاطفال والنساء والشيوخ متراصين داخل الكنيسة وهم يرتعدون فزعاً عندما فاجأتهم فصيلة الهاغاناه وراحت تحصدهم بالرشاشات حصاد طيور محبوسة في قفص. كان الجنود اليهود يطلقون النار وهم يقهقهون صارخين: عرب ما فيه بعد اليوم في فلسطين. عرب يذهبون إلى الصحراء او القبر.

أكثر من مئتي عربي اخترق رؤوسهم وقلوبهم الرصاص الاسرائيلي تحت جسد المسيح المصلوب وصور القديسين وايقونات مريم العذراء.

لقد تحولت أرض الكنيسة إلى بركة من الدم غاصت فيها اجساد راحت تختلج بدمائها وهي في نزعها الأخير.

كانت القوات الاسرائيلية تندفع، بعد أن تحطمت المقاومة، في كل انحاء حيفا. حتى المستشفيات لم تسلم من المذابح. ففي حمى الهجوم الوحشي وتحت سطوة شهوة القتل، اندفعتْ مجموعة من المتعصبين اليهود المسلحين بالرشاشات والفؤوس الحادة إلى مستشفى حيفا المركزي وراحوا يطلقون النار ويذبحون العرب الجرحى ببلطاتهم المرهفة على مرأى ومسمع الاطباء الانكليز الذين فرّوا نحو اروقة وأقبية المستشفى خوفاً من المذبحة.

●

في تلك اللحظات الدامية والمأساوية، والعرب يختلجون بدمائهم في مذبحة حيفا، كانت دولة داوود تشق أسسها في أرض فلسطين الصلصالية. وكانت تلك الأسس التي ستمتد من صحراء النقب حتى البحر، ومنْ خيانة العرب وتخاذلهم حتى حدود العواصم، يُسقى إسمنتها بالدماء الحارّة وتُرصّ أرضها بالجماجم العربية سهلة القطع.

وفي ذلك الوقت الملعون، كان كل شيء مستباحاً ورخيصاً، وداخلاً في حساب المقايضة والربح والخسارة، بدءاً من فساد الأسلحة والنفوس والخيانة، وانتهاء بالشهداء المجانيين الذين لم يستر جسدهم كفن.

□٨□

مع ابتداء الهجوم المباغت والغادر على المدينة، حُسم الخلاف في الأسرة حول السفر.

كان الهياج والصراخ ينطلقان من حينا مختلطين بدويّ قنابل المدفعية التي تئز وتتساقط من اعالي الكرمل. وترددت أصوات عالية: إلى الميناء. إلى الميناء. كان هناك أفراد من المجاهدين يندفعون إلى الدور والمنازل طالبين من الأهالي الاتجاه إلى المرفأ حيث تنتظر السفن والزوارق لنقل الاطفال والنساء والكهول إلى صور في لبنان. وداخل البيت كنا منهمكين في تجهيز بعض الأمتعة الخفيفة عندما دخل فدائيان لمساعدتنا في نقل اخوتي الصغار وأمي. وسألتهم أمي عن الأحوال فقال احدهما: كما ترين يا خالة. الحالة سيئة ونحن بين نارين: نار اليهود وتواطؤ الانكليز الأوباش. وسألت أمي ان كان عدد الثوار كبيراً، فقال الآخر: نحن بالعشرات وهم بالألوف. حيفا مطوقة والذبح بالعيال كذبح النعاج وجيش ستوكويل واقف يتفرج على المذبحة.

وقال أبي: حرب بلا أمل. اننا ضعاف ومنقسمون. وردّ الفدائي وهو ينقل الأمتعة إلى خارج البيت: يا عمّ لو كان هناك عرب وسلاح وذخيرة للعنّا أبوهم. يا عمي بتقاتل الدبابة بالبرنو وبفشك فاسد! بشرفي ما اخذوا شارع ستانتون إلا بخمسين قتيلاً.

ودعت أمي: الله ينصركم يا ابني على هؤلاء الكفار. إلهي يكون في عونكم وينجيكم من هذه النار.

لسان أمي الطويل وولعها بالثرثرة عن اخيها البطل الذي لم ينجب الزمان مثله كما تعتقد، أوشكا على الاندفاع عندما سألت الفدائي ان كان يتذكر معركة حسبة المدار التي انتصر فيها الكولونيل محمد عبد الفتاح، ثم جاء الانكليز واستعادوها بالدبابات وسلموها لليهود فيما بعد. لكن الفدائي أجاب بأنه متطوع

جديد في حزب الدفاع العربي وأنه من قرية ام العمد التي تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن حيفا.

في الشوارع والساحات والازقة، كان الشعب يتدافع ويركض حاملاً خفيف الأمتعة والأثاث باتجاه المرفأ وطريق عكا البرّي المودي الى نهاريا والناقورة.

عندما وصلنا إلى الميناء فوجئنا بحشد من آلاف الاطفال والنساء والعجائز يتناكبون ويتقذفون إلى البحر نحو السفن الراسية هناك.

خمسون ألفاً من الحيفاويين خرج من دياره وهام على وجه الشوارع والبراري والبحر في تلك الليلة والايام التي تلتها، بعد الانذار اليهودي ومجزرة يافا وسقوطها بيد الهاغاناه.

التقينا بأعمامي على رصيف المرفأ المختنق بالأهالي. كانوا مع عائلاتهم وأولادهم. لقد بدا صعباً سفر الجميع عن طريق البحر لأن السفن لم تكن تتسع، وكانت الأولوية للنساء والاطفال والمرضى. وتشاور والدي مع اعمامي ثم اتفقوا ان يسافر أبي مع العائلات والاطفال الصغار عن طريق البحر وأسافر انا مع اعمامي عن طريق البر ونلتقي في صور. حتى المغيب ونحن ننتظر وأبي منهمك في البحث عن الضابط البريطاني الذي يعرفه ليسهل سفر العائلة. مع الغروب صعدوا إلى السفينة بعد وداع ونحيب وتوصيات أمي لأعمامي بالحفاظ عليّ ورعايتي. طمأنت أمي بألا تخاف ولا تجزع لأنني ما عدت طفلاً وغداً نلتقي في صور. واتجهت مع أعمامي بسرعة إلى موقف سيارات عكا.

□٩□

الخروج.

بدأ على شكل انقذاف اعمى بعد الهدنة وغبّ الاشاعات التي انتشرت كالنار عن زحف اليهود وعمليات الابادة الجماعية التي ترتكبها اشتيرن والهاغاناه. لم يكن أولئك يتورعون عن ذبح الاطفال، وتمزيق احشاء النساء الحوامل بالحراب، واغتصاب الصبايا الجميلات، وجرّ الاسرى بالسلاسل إلى معسكراتهم واحيائهم ليعرضوهم على شعبهم وهم يهزؤون منهم: هؤلاء هم عرب الصحراء الشجعان. العرب الذي غزوا العالم واقاموا امبراطورية محمد بالسيف والقتل. انظروا اليهم اليوم كيف أذلهم إله اسرائيل وحولهم إلى عبيد سيخدمونكم في مزارعكم وبيوتكم. هؤلاء الرعاة يعودون إلى اصلهم الأول مسخرين لكم كما قال الاله يهوه لنبيه يشوع يوم انتصر في اريحا وعاي وحاصور.

وفي المعسكرات والمستوطنات قرأ احبارهم من سفر يشوع: «تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. وكان لما انتهى اسرائيل من من قتل جميع سكان عاي في الحقل وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً: جميع أهل عاي، وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم. وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً. وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة».

●

وعبر البر والبحر هام الشعب الخائف والحزين على وجهه. شيوخ وأطفال ونساء تدفقوا عبر ثغور الاردن وسوريا ولبنان، بعيداً عن الفتك الذي ابتدأ في طول البلاد وعرضها، مخلفين وراءهم البلاد التي تسبح الآن في دمائها.

كان الزمن صيفاً ، وكان الخوف وطلب النجاة قبل عبور الحدود سحابة سوداء تخيم على النفوس التي تخلت عنها السماء والأرض.

وتحت سماء من الصهد والعطش والجوع والتعب ، في السفوح الوعرة وشعاب الدروب ومجاري الانهار ، تشتت الشعب شتات قطيع داهمته ذئاب مفترسة من كل فجّ عميق*.

كان الأطفال يبكون والنساء يولولن بينما الشيوخ يندهون بالصبر واحتمال البلوى وهم يقرؤون ذكراً من آيات الله واحاديث الرسول ، داعين الشعب ليشدّ عزيمته في اجتياز التيه وامتحان الله للانسان المؤمن في هذا الوقت الصعب.

ومن بين هذه الجموع التي نجت من المذابح ، كانت تُسمع عبارات الغضب واللعنات على الانكليز واليهود والعرب الحكام والخونة ، كما كانت عبارات الرحمة والتشهد ترتفع نحو السماء على أرواح الشهداء الابطال الذين قضوا في القسطل ويافا والقدس وباب الواد ومرج ابن عامر وحيفا وصفد.

كان الأقوياء يساعدون الضعفاء ، ومن حمل طعاماً وماء اقتسمه مع الجياع والعطاش ، وعندما يهوي المتعبون والمرضى يندفع الفتيان والرجال ليوكثوهم على اكتافهم : تشجعوا يا أخوتنا. تشجعوا. اتكلوا علينا وعلى الله. الحدود قريبة.

– سنموت قبل أن نبلغ الحدود.

– لا تخافوا. يد الله مع الجماعة.

– يا عمي. والله ما عاد فينا حيل.

– قولوا يا الله. اتكلوا على الذي لا يُتكل إلا عليه.

– آه. آه. شايفلكم انو الله ما عاد معانا. هالحين صفّ مع اليهود ونسينا.

– حرام يا عمي. حرام هادا الكلام. هادا كفر.

– كفر أم ايمان! كيف ينصرهم ويكسرنا ورسولنا قال : انتم خير أمة اخرجت للناس؟

– يا عمي. يبلوكم ليرى قوّة ايمانكم. أنا شايف انو ما عاد فيه ايمان بصدور العباد وهذا سبب كسرنا.

– آه. آه. والله الرسول وجماعته ما انتصروا بالايمان وحده. بالسيف يا عمي بالسيف أخذوا النصر. الله يرحم الشاعر اللي قال : السيف أصدق أنباء من الكتب.

– دعونا من هذه الفلسفات والفذلكات وخلونا بحالنا. الدهر حطّ علينا وهذا الزمن ليس لنا.

– لمين الزمان يا خالة؟

– الزمان للقوي. للي عندو سلاح وبنّ.

– خانونا الانكليز والعرب.

– وقيادتنا الملعونة لا تنسوها. والله. والله عبد القادر وهو جريح قطع الجبال والفيافي من الشام حتى وصل القسطل وعمل في اليهود عمايل ما عملها عنتر بن شداد في زمانو. لكن القيادة السياسية هي السبب في استشهاده. قيادة التفرقة والركض وراء الزعامة والمال والجاه.

– ووراء الالمان مرّة والانكليز مرات.

– كل هذه البلوى من المفتي وجماعته.

– لو كنا مع انفسنا ما صار اللي صار.

وما كانت الحوارات تنتهي ولا تأنيب الضمير ولا الشكاوى والتهم. كانت الكارثة بفداحتها قد أوصلت الناس إلى جحيم اليأس وأبواب العار في الوقت الذي كشفت فيه ظلام الاعماق الجريحة ومكامن العطب.

□١٠□

فوق الطريق الساحلي من حيفا إلى صور ، كانت قوافل الباصات والشاحنات تعج بالناس والأمتعة ، وعلى مناكب الطريق انتشر المشاة الهاربون وراحوا يلوّحون للسيارات والعربات التي تنوء حتى سطوحها بالبشر والاثاث. وعبر القرى والمزارع انتشرت اخبار مريعة عن زحف اليهود وتقدمهم ومذابح الأطفال واغتصاب النساء. كما فاضت الشائعات حول استسلام الثوار وخيانات العرب وتواطؤ المفتي والملك عبد الله والموافقة على التقسيم.

تحت سطوة هذه الأحوال المؤلمة ، والشتات المفلت من عقاله ، كان الخائفون والمجتاحون يطلقون صرخات : الأرض ولا العرض ، بين عويل الصبايا العذراوات ، ونواح العجائز الندابات. كان هؤلاء النسوة يهبن بالرجال لانقاذ الفتيات والحريم من اغتصاب اليهود وتلويث الشرف. كانت الحياة الشخصية وحياة العائلة ، وانقاذ ما يمكن انقاذه دفاعاً عن النوع ، تبدو وكأنها بذرة البقاء بعد انفراط عقد الوطن واجتياح الأرض.

كنا على أبواب الفجر والشاحنة تترنح بنا ونحن نستلقي داخل صندوقها المكشوف. ومن البحر كان يأتينا نسيم غربي رطب. ونحن نقترب من نهاريا.

كنت محشوراً بين الناس أستند إلى جدار الشاحنة قرب عمي صالح الذي كان يحدق طويلاً في السماء. بدت السماء عكرة وكأنها رشت بالغبار. بدا عمّي منقبضاً وساهماً بلحيته التي وخطها الشيب وجبينه المغضن وسنواته الخمسين التي زادتها أحداث الأسبوع الأخيرة عشر سنوات هرماً.

مع شروق الشمس تململ المتعبون والنيام فوق أمتعتهم ، وقال عمي : انهضوا يا جماعة. قوموا شوفوا. والله في السماء يوجد شيء غريب.

وحركني : ولك نافذ ابن أخي. انظر معي انظر. أنا شايف الشمس كأنها مكسوفة.

النعاس والتعب وارتجاج صندوق السيارة اللعينة ، أعيانا عبر هذا الطريق

المحفر والملتوي. ونظرنا إلى عمق السماء بعيون يغشاها النعاس والسهد. كانت الشمس مطوّقة بهالة من غبار يشبه زهر عباد الشمس.

وقال عمي سالم : آه. يا حسرتي حتى الشمس تبكي علينا. كان هو الآخر مرمياً في الزاوية يعاني مغصاً مزمناً من مرض الكولون.

أمامي كان يقعي عجوز هرم شبه أعمى تسيل من عينيه دموع متواصلة. كان طوال الطريق يتمتم أدعية وهذيانات حول الجحيم والجنة وعقوبات الرب للكفرة والمشركين ، ويبشر بقرب القيامة ونهاية العالم لأن الاعور الدجال قد ظهر على صورة اله اليهود ، وبظهوره الشيطاني سيظهر له عدوّه الرحماني وهو النبي الخضر الاخضر سيدي الرفاعي الذي سيرسله الله مع جنوده من بيت المقدس الشريف ليفني اليهود والعالم. عندما سمع عمي سالم وصالح يتحدثان عن كسوف الشمس ، حوقل وبسمل وهو يمسح دموعه : هذه علامة من علامات القيامة وغضب الله. ابشروا بظهور سليل الرحمن وسيدّ الزمان والذي سيعيد إلى فلسطين مجد بني كنعان. الله أكبر والعزة لذي العزّة فالق السموات والأرض. وراح يقرأ من سورة يوسف : يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.

اصابتني رهبة وأنا اسمع الشيخ يهذي ، فالتحمت أكثر بعمي وأنا ارتعش. سألني ان كنت أشعر بالبرد فقلت : لا. انني خائف من هذا. وأشرت إلى الشيخ الذي أخرج مسبحته الصفراء الطويلة وراح يطقطق حباتها وهو يهز رأسه كالدراويش إلى الامام والوراء. وقال عمي : لا تخف هذا رجل مسكين وممسوس ورفاعي. وشرح لي أموراً غريبة عن طريقة الرفاعية المتصوفة وحلقات ذكرهم وضرب اجسادهم بالسكاكين والسفافيد وهم يصرخون : مدد يا رفاعي مدد. وعندما سألته إن كانوا يموتون من الطعن نفى ذلك : قوّة ارادتهم تفوق طاقة الجسد. لقد تدربوا على تجاوز الموت بقوة الروح ، الروح هي الاصل والجسد هو الفرع. الروح هي الرفاعي. وشرح لي ، وأنا لا أكاد افهم ، عن الطقوس الخاصة والسرّية التي يقوم بها الرفاعيون في حفلات الزار والطعن واظهار المعجزات

الغريبة من خلال قوة الروح والارادة ، وكيف ان هذه الطقوس تتم في جوّ اسطوري غريب تخيم عليه رائحة البخور والصلوات وأصوات الطبلة والمزهر وايحاءات السيد الأكبر الذي يشرف ويقود الحضرة الواقعة تحت سيطرته وأوامره . هذه الحالة تدخل الرجل الذي سيطعن نفسه بالحربة في حالة غيبوبة . يتخدر الجسد وتتجلى الروح متقمصة الرفاعي السيد الأكبر . الطعنة ، كما يعتقدون ، يتلقاها السيدّ الذي دخل الجسد كروح وإرادة قوية تقهر الحديد والنار والزجاج والسمّ . وختم كلامه بأن بعضهم مدرب على امساك الجمر والضغط عليه بالقبضة دون أن يحترق ، وآخرون يأكلون الزجاج وشفرات الحلاقة ويمسكون الافاعي المسمومة فيخضعونها لأنغام خاصة بحيث تخرج من أوكارها وتأتي اليهم صاغرة ؛ انهم ينادونها لتخرج : تعالي يا مباركة . باسم الملك سليمان ابن داوود ملك الانس والجان . وبقدرة مولاي وسيدي وشفيعي الرفاعي أطلب اليك أن تخرجي من الدار الضيقة إلى الدار الوسيعة . اخلعي ثوبك الاسود والبسي ثوبك الأبيض ، ثوب العرس والافراح والليالي الملاح الذي زفّوك فيه لسيد الجان الملك سليمان . هيا . مدد يا رفاعي مدد . ويبدأ بعد هذا النداء يغني لها ويضرب على المزهر حتى تخرج اليه طائعة فيصيح : انظروا معجزات سيدي الرفاعي الذي اخضع الافاعي في أوجارها والاسود في غاباتها والصقور في جبالها . انظروا واتعظوا يا جبابرة الأرض الصغار . بعد هذه الحكايات التي اخافتني في البدء ثم شدت انتباهي ولذّت لي حكاية صيد الافاعي ، سألت عمي عن قصة الشمس وكسوفها فقال بأن الأمر حادث طبيعي له علاقة بدوران الأرض والقمر .

— ليس من أجل فلسطين انكسفت إذن ؟

— هيه . هيه . دعك من خرافات عمك سالم . يا نافذ يا أبن أخي بعد ان تصل بالسلامة ستتعلم وتأخذ شهادات ويتفتح عقلك وتضحك على هذه الخرّيفات . سأقول لك كلمة لا تنساها : اليهود غلبونا بالعقل والعلم . نحن جماعة

ضعاف العقول ما زلنا نعيش في العصور الحجرية وبس تطلع من هذه الكهوف القديمة تغلبهم .

●

لا بد ان صور تقع في نهاية الأرض ، ولن نصلها قبل أن ننهك وننفق في هذه الشاحنة التي تعود إلى ما قبل التاريخ .

انها المرة الأولى التي أبتعد فيها عن أمي . كانت علاقتي قد توطدت بها منذ أصيبت في وادي النسناس وتعمقت أكثر بعد ان صارت بقدم خشبية .

— ماذا لو ماتت أمي في البحر ؟ سألت عمي فجأة على غير توقع منه . مسح شعري ثم ربت على كتفي وقال : من أين تأتيك هذه الأوهام ؟

تأكد انهم سيصلون قبلنا وعندما تصل سيكونون في لقائنا .

وقلت : خفت من كسوف الشمس .

— لماذا ؟

— انهم يقولون ان ذلك نذير شؤم يا عمي .

— عجيب ! انت في عمر الشباب ولست طفلاً ومعك شهادة كفاءة فكيف تفكر كالدراويش ؟ يا عمي قلنا لك بأن كسوف الشمس يحدث دائماً من تداخل القمر بين الشمس والأرض .

— لكن قلبي يدق يا عمي . انني خائف ألاّ اراها هي وأبي واخوتي . خائف ان يغرقوا في البحر .

— هو ما في غير امك في البحر . أولادي وزوجتي وأولاد عمك سالم وزوجته . نصف اهالي حيفا في البحر . الناس تصل بحماية الانكليز ، واليهود عندهم عيد لتفريغ حيفا من العرب .

قال ذلك بغضب ومرارة ، وبنبرة توبيخ أخرستني . تحاملت باستخذاء مبتعداً عنه وانزويت في الزاوية قرب عمي سالم الذي كان نائماً .

●

ها نحن في الناقورة أخيراً. ترجلنا لنأكل ونستريح. في مركز انطلاق السيارات كان هناك لغط وازدحام واصوات السائقين والمعاونين : صور. صور. اين ركاب صور؟ وكان الأهالي الذين سبقونا وأهالي المدينة يسألون إلى أين وصل اليهود؟ وهل اخذوا حيفا؟ وكم عدد النازحين؟ والقتلى هل هم بالآلاف؟ وأين الجيوش العربية الجرارة؟ وهل حقاً باع الفلسطينيون الأرض ليكسبوا العرض؟ وهل يصل اليهود إلى هنا؟

في تلك اللحظات المريرة والمشتتة كانت الاجوبة أكثر مرارة ، وما كان بعضها ليقنع المذعورين الواقعين تحت سطوة الاشاعات والمبالغات والدعاوى الملفقة .

لقد بدا الشعب وكأنه تحت اعصار أو فيضان مجنون اجتاحه في غفلة من نفسه فأضاع صوابه ، وراح يجرفه كورق الخريف صوب البحر أو الصحراء . حتى التشبث بصخرة ما كان ممكناً في لحظة الانهيار على سفح الهاوية . كانت السماء والأرض مسحوبتين من تحتنا ومن فوقنا وكنا نتأرجح في الفضاء العاري . لقد بدا وكأن حالة التوازن فقدت ، وأننا صرنا خارج الجاذبية .

بعض الشيوخ والعجائز كانوا يجيبون بعصبية على اسئلة الاهالي والناس المذعورين ، بأن الاحوال سيئة والشعب مجروح وواقع تحت رحمة الله ، ثم يستدركون بشفاعة أمل وخشبة نجاة وهمية ، بأن الله العزيز الحكيم لن يتخلى عن عباده الذين يتجملون بالصبر والسلوان ، وأن من اراد البقاء فليستعن بالرحمن ويكبس الجرح بالملح ، ومن اراد الخروج فليتوكل فلن يصيب الانسان إلا ما كتب الله له : ان لنا اسوة بهجرة الرسول الاعظم يوم حاصره الكفار في

مكة فأسرى مع صاحبه إلى المدينة ثم تبعه المهاجرون . ان أنصارنا هم عرب لبنان وسوريا والاردن ومصر . هؤلاء اخوتنا ولن يتخلوا عنا في هذه المحنة .

□١١□

كانت المدارس والجوامع والكنائس والمستشفيات وبيوت الصوريين تتلقى افواج النازحين، المدينة بكاملها هرعت وهبت للنجدة والمساعدة. البحارة وعمال الميناء وطلاب المدارس والموظفون كانوا ينقلون الاطفال والمرضى والأمتعة من الميناء ومراكز التجمع تحت جنح الظلام. وخلال وصولنا ليلاً كانت المدينة غاصة بالحركة والبشر. كانت المدينة مستنفرة لإنقاذ الناس ومساعدتهم ، وكنا نسمع البكاء والآهات وصرخات النسوة الباحثات عن اطفالهن. ووسط الهرج والصخب كان أهل المدينة المستنفرون يخففون البلاء بالأطعمة والمياه. لقد جاؤوا بالبطانيات والبسط والثياب من منازلهم وحوانيتهم وراحوا يوزعونها مجاناً. وانطلقت فرق الانقاذ والمساعدة من الطلاب والشرطة تواسي الشعب المهان والمكسور: صور هي حيفا. انتم في حمى اهلكم. كلنا عرب ومسلمون. بيوتنا بيوتكم، وفراشنا فراشكم وطعامنا طعامكم. سنقتسم معاً الخبز والزيت والملح والماء والثياب والنوم. نحن اخوة وأنتم بيننا كأنكم في دياركم.

وكان آخرون يطوفون على الشعب المرمي في الساحات ومرائب السيارات وساحات الجوامع والمدارس ومعهم أدوية للمرضى والجرحى، بينما انطلق بعض رجال الدين يوزعون أدعيتهم وشتائمهم على اليهود القتلة الذين استباحوا أرض محمد والمسيح وخالفوا شريعة نبيهم موسى وعصوه فتاهوا أربعين عاماً في الصحراء عقاباً لهم. لقد حاربوا رسول الله في خيبر فحقت عليهم اللعنة إلى يوم الدين: وبشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر وديار الظالمين بالخراب يوم الحشر والدين.

ما كنت اعتقد أو أتصور ان يوم الحشر والدين سيكون أقسى من هذا الحشر الذي نحن فيه. لقد كنا كالأسرى والعبيد في تلك الأيام السوداء. كل ما كنت اراه واسمعه كان شعاعه يتوهج في وجه أمي واخوتي الذين نبحث عنهم مع عائلة اعمامي في ساحة الميناء والشوارع ومراكز التجمع.

سمعنا الشائعات تتناقل عن حصار آلاف العائلات والاطفال الذين اختبؤوا في زوارق صغيرة بين البوارج والدارعات الانكليزية في قاعدة مرفأ حيفا العسكرية

خوفاً من هجوم اليهود، بانتظار الابحار بهم إلى صور، ولكن البحارة الانكليز رفضوا تقديم الماء والطعام لهؤلاء المحاصرين. ووصلت اخبار من شهود عيان تتحدث عن هجوم الهاغاناه على المرفأ وضرب بعض الزوارق التي انكشفت في عرض البحر بعد ابتعادها عن البارجات الانكليزية. لقد ضربوها بالرشاشات والمورتر فجرح واستشهد غرقاً مئات الاطفال والنساء في اعماق البحر.

ووصلت رواية القادمين من عكا بعدنا. كانت اخباراً مريعة. القتلى والجرحى بالآلاف. مستشفى المدينة غصّ بالمصابين. الفرش والبطانيات والحصر مُدّت في ممرات واروقة المستشفى. لقد استخدم اليهود رصاص الدمدم السام فكان الجرحى ينفقون بجراحهم التي سممها الرصاص.

حتى الصباح ونحن نبحث عبثاً عن العائلات والاطفال. قالوا لنا أن صور ازدحمت فأرسل قسم من الشعب إلى مراكز تجمع في الضواحي والقرى في الرشيدية وبرج رحال وبنت جبيل.

وقال عمي صالح: اما انهم تأخروا أو ارسلوا إلى خارج صور. سنذهب لنبحث عنهم في القرى. كنا الآن في جامع عمر بن الخطاب نتكوم في زاوية منه بين عشرات العائلات التي تناثرت في الساحة وداخل المسجد وعلى المداخل. كتل من اشياء شبيهة بالبشر الاحياء، تكومت تحت اسمال من بقايا الثياب والحصر والبطانيات والمعاطف البالية.

●

بعد اسبوعين في مدينة صور اصابنا يأس وتحققنا من الكارثة. اعمامي فتشوا عن العائلات في جميع القرى التي أرسل اليها النازحون ولم يتلقوا خبراً كل يوم كنا ننزل إلى المرفأ صباحاً ومساء. كانت تصلنا اخبار عن بواخر ذهبت خطأً إلى قبرص بعضها تابع رحلته إلى سوريا أو بيروت. عمي صالح سافر إلى بيروت

وسوريا وعاد بخفي حنين. في الاسبوع الثالث قطعنا الأمل وايقنت ان وجه أمي ووجوه اخوتي وأبي قد غابت إلى الأبد.

كنت في ساحة الجامع. سمعت الناس يروون عن هجوم الهاغاناه على الزوارق والبواخر التي تحمل المهاجرين، وكيف اندفع هؤلاء في زوارق حربية سريعة وراحوا يحصدونَ العائلات والاطفال في عرض البحر حتى تحوّل البحر إلى حقل من دمٍ تسبح فيه الرؤوس والأيدي والأرجل المقطوعة تحت مرأى ومسمع جنود البحرية الانكليز.

تخيلت أمي واخوتي طافين على سطح البحر وقد مزقهم الرصاص فاندفع بكائي شهيقاً حتى لكأن عيني اصيبتا بطلقتين. كانت الدموع تتفجر وتنهمر كالدم. رحت اضرب الحائط وأدق بلاط الساحة صائحاً: أين أمي، هاتوا لي اخوتي وأبي. اريد أن اعود إلى حيفا. آه. يا أمي. آه. يا غالية. يا حنونة. أريد أن أموت.

كانت صورتها تأتي محمولة على امواج الدمع فيزداد نحيبي. مرة وهي تهوي فوق خالي جريحة، ومرة وهي تنادي في مقبرة الشهداء وتندب، ومرة وهي تحجل في البيت وتضمني بين ذراعيها وتروي لي حكايات، ومرات وهي تطفو على وجه البحر ثم تغيب سابحة بدمائها وهي تصرخ ثم تصمت ثم تحاول أن تمدّ ذراعيها ثم تهوي وتتحول طعاماً للأسماك.

عبر هذه الأطياف ما كان الدمع ليتوقف، وأقبل الناس يحاولون تهدئتي؛ ضربت الأولاد والنساء وشتمتهم: أريد أمي. دعوني أموت. لطمت رأسي بجدار الجامع. وعبر بروق الدمع لاحت جثث اخوتي الصغار تطوق جثة امي وهم غارقون في برك ودوائر دمائهم: آه. آه. لماذا ماتوا؟ ماذا فعلوا ليقتلوهم؟ ليتني بقيت ومتّ معهم. ما كنت اسمع شيئاً مما يدور حولي غير الطنين ولا أرى غير الاشباح. كان الدمع يغشى بصري. وكانت الايدي تضغط على زندي وتمسك

رأسي وتطوقني وأنا اتملص واندفع هادراً كحيوان مجروح: اتركوني يا أولاد الكلب. اريد أن أموت. ابعدوا عني. ماما. ماما. أين انت يا نور عيني. يا ضيا قلبي. آخ. آخ. مت-وتركتني وحيداً. كيف اعيش بعدك.

الصفعات التي تناولت وجهي آلمتني. حدّة وجعها تخطى الالم النفسي وانفجارات الدمع. من خلال شفافية الدموع لمحت وجهاً شبيهاً بوجه عمي صالح. كان يصلب ذراعي على الحائط ويتناوب صفعي على خدي بكفين صلبتين. بدأ رأسي يثقل. من شدة اللطم والصفعات تدلى. لقد قطع عمي صلاته وهرع إلي عندما أخبروه. وجهه الذي ميزته وأنا أستفيق كان في سواد القار، وراح تحت غضب مكتوم مستعر بالقهر، يؤنبني: كلب. مجنون. ماذا دهاك! تشمّت الناس فينا في هذا الوقت الضيق! الا تخجل؟ طفل انت حتى تفعل ذلك؟ عمرك خمسة عشر عاماً وتتصرف كالأطفال. آلاف الناس ماتوا والآلاف تيتموا. بلاد بكاملها تحت السكين والبارود وانت تبكي في البلاد الغريبة كالحريم. أفق على نفسك. أفق. اعترضته: دعني.. دعني أريد أن أموت. حاولت التملص من ضرباته وأنا أصرخ. صدمت كفه أنفي فأرعفت وسال الدم من أنفي فصحت موجعاً. امسكني بمقدم شعري ثم رفع رأسي إلى أعلى في مواجهته. جحظت عيناي: يا ابن الكلب. والله ان لم تستيقظ سأذبحك. وبسرعة سحب من جيبه مطواة فتحها ووضعها على رقبتي: يا حيوان. يا امرأة. الا يكفينا ما بنا!

أأنت الوريث والشبل الذي قال عنه الشهيد محمد هذا سيكمل طريقي؟ بالدموع ستعيد فلسطين؟ أهكذا يتصرف ابن الشهداء؟ تفوه عليك وعلى البطن الذي حملك. يا ليتها حملت جرواً ولم تحملك.

استخذيت، تهالكت مستسلماً ليديه. كانت كلماته تنفذ كالسكين إلى القلب. طوى المدية وجرّني إلى داخل الجامع. كنت متعباً حتى العياء وكأنني خارج من معركة.

ألمي وحزني انفجرا كما ينفجر دمل تحت ضربة مبضع.

في زاوية المسجد أجلسني عمّي في حضنه وراح يمسح دم أنفي ودموعي. وطلب لي ماء وسقاني. قال وهو يمسح وجهي وشعري بحنان الأب: اخرج واغسل وجهك. العن الشيطان واستخذه واستغفر الرحمن.

بعد غسل رأسي ووجهي عدت صاحياً. جئت إلى عمي وقبلت يده: سامحني يا عمي. سامح ضعفي وألمي. قال: بل سامحني أنت لأنني قسوت عليك أكثر من اللازم. ثم أخذني بين احضانه وقبلني: إذا مات أبوك وامك يا نافذ يا حبيبي فأنا أبوك وامك. نحن أيضاً فقدنا عائلاتنا وأولادنا وما بكينا. شجرة البلاد تذبل بالدموع وتنمو بالدماء وهذه الشجرة الذابلة تحتاج دمك في الأيام القادمة.

الفصل الثاني

□ زمن الرعد والازهار □

□١٥□

الغربة .

اجتازت عشرين عاماً من التيه. من الانفاق المظلمة ، والممرات الضيقة ، وبوابات النار. عشرون عاماً من التيه : من حيفا إلى لبنان فالاردن فالعراق فالكويت فسوريا ، ثم عينا بوس أخيراً. مياه كثيرة مرت تحت جسرها ، وآلام بحجم الأرض مرت فوق الجسر. تيه وشتات عبر دروب الأرض الملعونة ، وفي كل نقطة من الكرة الأرضية يحمل الذي عاد بلا وطن تهمة : الغريب. قربها صرخته الجارحة :

متى أعود ؟

وما كان أحد بريئاً من دمه المباح .

وما كان أحد بريئاً من أكل لحمه الحيّ والميت .

وفي زمن التيه وتضميد الجراح ، قال عنه الاشقاء في بلاد الغربة ، اذ خُدعوا بسكينته ، لا هو حيّ فيرجى ولا ميت فينسى .

وكما قال العجوز في شاحنة حيفا – صور : لا السماء كانت شفيعاً ولا الأرض كانت حنوناً .

وكان منبوذاً ومطارداً ومُلقى كالوباء على اطراف المدن العربية ، ينام مع الذل والارتهان . ويستيقظ على صرخات المعتقلين والذين يُساقون إلى ساحات الاعدام تحت الضحى .

انفجار من الحقد والكراهية واللامبالاة والغدر والنبذ، ثم التهم التي تُرشق كطلقات البنادق حول الجبن والهرب وبيع الأراضي وتسليم الوطن للأعداء بلا ثمن.

أما الذين نسوا خيانة عبد الله والشرباتي وصالح جبر وفساد اسلحة فاروق وهزيمة خمسة جيوش جرارة، عبيد صاحبة الجلالة، فقد كانوا انقياء واطهاراً إزاء أولاد الزنا الذين سلموا ارضهم وتجوا بعرضهم.

هكذا تناوشوه، هو الجريح، كضباع كريهة الرائحة، ثم قذفوا به إلى الخيام تحت العراء العاري. وفي زمن التيه كان العراء والبراري والوحوش أكثر رحمة وأوسع صدراً.

لقد أهانوه وضربوه وهو مكبل، ومسحوا بجسده عار خياناتهم، ولم يتوانوا عن ذبحه عندما طلب منهم سادتهم في لندن ونيويورك وتل أبيب، وما اتّقوا في ذلك غضب شعوبهم يوم يُحاسبون بدمه في يوم قيامته.

وعبر عشرين عاماً آجروا به وطردوه كطاعون او جراد حلّ عليهم في يوم صائف.

وخلال تلك السنوات السود، عبر الشعب المكسور الظهر مطهره تحت صهد الشمس والجوع والعطش، وسياط الذل اللاسعة. لقد قاوم بالروح المنبثة في تجاويف الصخر، ضربات الريح والامواج وغضب آلهة الأرض.

وفي حقبة الظلام وأزمنة الشدّة، تعلم الشعب الصابر والمستباح، عدم المغفرة والحقد الصامت، في الوقت الذي كان يخيل فيه لكل الاعداء ان روح النعاج بدأت تتسرب إلى روحه بفعل مصل الاهانات الذي يُعطاه كل مشرق ومغرب شمس.

وفيما بعد، بدا واضحاً انه كان وفياً لنذر نذره في سرّه، وهو يُداس بالأحذية، ويضرب بأعقاب البنادق، وتنزع اظافره في اقبية التعذيب، ويشيّع

موتاه ليدفنها في براري المخيمات: ألاّ يغفر لجلاديه، ولا يرحم الكلاب التي مزقت لحمه وولغت في دمه.

ومع أن الأرض كانت رخوة وجرداء تحت شمس حادّة، إلا أن الاغصان التي سقطت في خريف الزمن، كانت تدفن ثمارها في رحم الأرض. ومن ندى الصباحات البكر وقطرات المطر استطاعت بذور الثمار الدفينة امتصاص ما يصل اليها من رطوبة لتبدأ دورة الأرض الجديدة حفاظاً على بقاء النوع.

□٢□

درست في العراق في كلية التربية وعلم النفس، ثم هاجرت إلى الكويت وعدت ومعي بعض المال من التدريس، ثم دخلت الجيش الاردني وأتقنت صناعة المتفجرات وقنابل المولوتوف، وسجنت عامين بتهمة اطلاق النار على ضابط مخابرات اردني، ثم عدت إلى عينا بوس وتزوجت امرأة بسيطة من القرية.

وحتى لا أنسى، وتذكاراً للشهداء، أقمت في المزرعة المجاورة للبيت أحد عشر قبراً رمزياً. قبر للكولونيل محمد، وقبران للوالدين، وثمانية قبور صغيرة لإخوتي الذين اغتيلوا في البحر قبل ان تورق شجرة الدنيا في عيونهم وعبر السنوات الضائعة التي كانت بالنسبة لي سنوات الاختمار، بدأت بعض التدريبات الروحية والعضوية.

فبعد فناء وموت العائلة في البحر حدث في داخلي صدع عميق حول الحياة والموت، وحول الايمان والعقل. لم أفهم لماذا مات أهلي، كما لم أفهم لماذا تخلى الله عنهم وهم ابرياء لم يرتكبوا ذنباً ولا خطيئة. لقد زلزل موتهم ايماني فيما بعد وخلق في اعماقي شعوراً بتفاهة الانسان وسقوط قيمته في نظر الخالق الذي تخلى عنه في وقت المحنة.

— لماذا تموت المخلوقات الجميلة والبريئة؟.

وما كان هناك من جواب مقنع سوى الفراغ، وتلك الهاوية التي لا قرار لها. الهاوية التي غاروا فيها إلى الابد. كان الموت هو الحقيقة المفزعة التي صدمتني وأنا على أبواب الحياة. الحقيقة التي كشفت لي عبور الانسان على شعرة الحياة الرفيعة والهشة، عارياً ووحيداً بلا شفيع أو منقذ.

في الجامعة تزودت بعقل بارد، ومراقبة منطقية لحقائق الحياة، ورفض داخلي للميراث الاسطوري والديني. ميراث حوّل حياة شعب إلى استسلام غيبي واتكال أعمى على قوى خفية وهمية يدعوها صباحاً ومساء لتخرجه من منفاه وتنهي محنته مناجية الطير الابابيل لترجم اعداءه الذين شردوه وطردوه. وفي

الوقت الذي كان فيه هذا العدو يحصن بالاسمنت المسلح مدنه التي اغتصبها ومستعمراته، ويحصن رأسه بالعلم والحقائق الجديدة والمستحدثة، كان القسم الأكبر من شعبي سادراً يهدم حياته بالرقى والتعاويذ والصلوات واحتساء القهوة والشاي والخمر وسهرات الزار والنرد والنراجيل، وجمع المال والنساء، والبحث عن مسراته والعابه الصغيرة عبر المنفى.

داخل الحرس الوطني في الجيش اكتسبت مناعة عضوية في الجري وتمارين القتال القريب والاشتباك بالسلاح الابيض والرمي الغريزي واغتيال الخصم بطريقة خاطفة وقذف القنابل اليدوية.

وإلى جانب ذلك تعلمت كراهية العرب الذين كانوا يشيرون الينا بأصابع الاتهام ثم يبصقون وهم يرددون جهاراً او استبطاناً: يا أولاد العاهرة بعتموها وجئتم تحتلوننا.

هؤلاء هم انفسهم الذين باعونا في حرب الـ ٤٨ وغدروا بنا، وها هم يحاولون اذلالنا واهانتنا في الصباحات والمساءات.

لقد حفظت من كتاب المسلمين واحاديثهم عبارة أو آية لست أدري، تقول: العين بالعين والسن بالسن وديار الظالمين خراب.

وهذه العبارة أو الآية وردت في توراتهم، وفي كتابهم المقدس الذي يؤرخ حروبهم من عهد يشوع الفاتح والسفاح حتى السبي وانقراض ممالكهم. كان القتل وإفناء الشعوب الغريبة والعدوة هو القانون السائد. هكذا يرسم الاصحاح الحادي عشر لسفر يشوع: «ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك، وضربوا كل نفس بها بحدّ السيف وابادوهم. ولم يبق نسمة الا وأحرقوها بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم

نهبها اسرائيل لأنفسهم وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى ابادوهم ولم يبقوا نسمة».

وهكذا من بدء الزمن امتد بيننا ميراث الدم. افتتحوه من سيناء بعد التيه الأول ولما يغلق بعد، ولن يغلق إلا باقامة مملكة داوود من نيل مصر إلى فرات العراق بعد هلاك الشعب؟

●

أنا الآن بين قبور أهلي أواصل تدريباتي الروحية بعد ان اكتسبت مناعتي العضوية. اتكيء على جدار قبر أمي الغالية، وأرى من فتحات الاشجار النجوم المتلألأة، وسماء عالية وفارغة.

لا أعتقد انني غير سوي في هذه التأملات التي تبدو غير طبيعية.

لعلني أفكر في هذا العراء الغريب بمسألة تبدو ساذجة. انها بصيغة سؤال: هل أحيا أم أنقرض؟

وربما لم يكن هذا تحديداً ما أهدف اليه في مجرى الأسباب والحيثيات.

اعتقد انني ادركت جوهر القانون الذي استنه الكتاب المقدس وورثه الذين لا يعترفون بأية شريعة أخرى، وفيما أظن ان تلك الرؤيا المقدسة والمهووسة عن أرض الميعاد وعصور الاجداد القدامى تطرح علي سؤالاً صعباً: هل تموت أم تُستعبد؟

قبل عشرين عاماً ربما كان هذا هو السؤال الذي لم تستنبط ونفك رموزه، لكنه الآن وهو ينتقل من حالة الغموض واللغز إلى مجال الفعل الدموي، يُلقي بيننا على شكل بحيرة من الدماء والأراضي المستباحة.

سأقول اذن، باستنتاج قانونهم، وجواباً على السؤال الفادح، وأنا غير آسف على ما سيحدث في قاتمات الايام، انني سأموت.

ولكن قبل ذلك، سواء سُمح لي أمْ لم يُسمح، (علماً أنه ما عاد بيننا غير قانون الغاب الذي شرّعوه) سأضربهم اينما لقيتهم. سأطلق النار عليهم في البرّ والبحر، في البيت والمعسكر، في المعركة والشارع، في المقهى والخمارة، في الحقل والمصنع. سأطلق النار عليهم وأذبحهم ولو كانوا في احضان الله تعالى يصلّون.

مرة سأقتلهم ثأراً للكولونيل محمد، وتسع مرات من أجل اخوتي وأبي، وآلاف المرات من أجل أمي البريئة والشهداء والمغدورين والبلاد التي سقطت بحدّ سيفهم عندما انكسفت شمسي، وبعد ذلك أموت ضاحكاً.

□٣□

كان ينبغي ان تسميني أمي علاء الدين بدلاً من نافذ علاّن. وكان على علاء الدين هذا أن يطلب يد حبيبته من والدها فيقول له: إذا احضرت لحبيبتك حليب البلابل من جزر واق الواق تكون لك.

وحتى يصل علاء الدين إلى غابة البلابل في تلك الجزر النائية كان عليه ان يجتاز المخاطر والدروب الثلاث الوعرة: درب الحريق، ودرب الغريق، ودرب السد الذاهب فيه لا يُردّ. لقد كنت واقعاً في شباك هذه الاسطورة وفي مخاطر دروبها القاتلة:

درب الحريق كان اليهود.

ودرب الغريق كان اهلي.

ودرب السد كان العرب.

هكذا كنت مطوّقاً بالاعداء من كل الجهات، والحصار يكاد يسدّ المنافذ كلها في وجهي. عبر كل الأصقاع العربية كان الطغاة العرب قد نفوني كأجرب أو كقبيلة من الغجر إلى الأرياف وأحزمة المدن البعيدة، وهناك طوقوني بالأسلاك الشائكة وحراس البوليس وخنازير المخابرات.

وبفعل امصال الذل والتشريد والجوع وضغط المنفى، كان قومي قد تمزقوا مستجدين الحماية والأمن، يتسولون كالشحاذين على أبواب وكالات الغوث وأبواب المكاتب والمؤسسات الحكومية. لقد دجنهم الطغاة العرب فحوّلوهم إلى ما يشبه القطيع المحاصر داخل المخيمات. كثيرون هجوا خارج بلاد العرب كفراً ويأساً وطلباً للعمل والمال، وآخرون اندمجوا في المؤسسات العربية وتحت خدمة الملوك والسلاطين والجنرالات، ولم تتورع أنفار منهم من الوقوع تحت سطوة العدو لخدمته بعد أن يئسوا وماتت ضمائرهم فتحولوا إلى كلاب بوليسية يتبعون الأثر ويأتون العدو بالروائح.

وكان على من تبقى أن يعبر دروب علاء الدين الحارقة والمغرقة والمسدودة ليأتي بحليب البلابل المضرّج بالدم.

●

كنبات الصبار كانت شجرة الكراهية تنمو في أعماقي. شجرة مملوءة بعصارة الحياة الخضراء لكن اشواكها البيضاء مسمومة كناب أفعى. وخلال التمارين الأولية لاستيضاح طريق النجوم الذي سأسير على هداه في الليل الحالك، ولحل معضلتي المستعصية، كنت أحاول جاهداً للموازنة والانسجام الداخلي، التوازن العادل بين أعدائي، وبين الانسجام الروحي، وأنا أطلق هذه الحرائق التي تأكل أحشائي.

لا أدري بدقة رجحان الخطأ والصواب. أي منهما على الآخر، في الحادثة التي جرت في نادي ضباط عمان.

كانت خدمتي العسكرية في الحرس الوطني توشك على نهايتها، وكنت اجهز نفسي للتسريح والعودة إلى نابلس. كان اليوم يوم جمعة على ما أذكر وكنا نحتفل بمناسبة تسريح الدفعة التي سأكون واحداً منها. ضباط فلسطينيون واردنيون بدأنا نشرب ونصخب ونثرثر حول كل شيء يعبر تحت امواج الشرب.

سألني أحد الزملاء ماذا سأفعل بعد تسريحي، فقلت بأنني سأعود إلى البيت وربما عدت للتدريس.

وسأل الضابط: اليس أفضل لو تبقى في الجيش؟ قلت: لا. أنا لا أحب العسكرية.

الملازم الأردني سألني سؤالاً: أأنت سعيد يا ملازم نافذ لتسريحك؟
قلت: بالتأكيد. ومن لا يفرح بخلاصه من الجندية!

وتدخل ضابط اردني برتبة نقيب: وخاصة عندما يكون المسرّح فلسطينياً.
كنا نشرب الآن نخب الحياة المدنية أنا وزميلي الأول. واستفزتني عبارة النقيب

فقلت وأنا اضع كأسي : سيادة النقيب هل يمكن أن تشرح لنا الفرق في سعادة التسريح بين الفلسطيني والاردني؟

ورد بغطرسة : أنا مثلاً كشرق أردني سعيد أن أظل في خدمة سيدنا الملك إلى الابد، ولم أجب. زممت شفتي. لمحت على جدار الصالون صورة كبيرة للملك ببزته العسكرية ونياشينه وابتسامته.

كان الآخرون يضحكون ويضربون الطاولات ويرفعون الانخاب تحت امواج الصخب والضحك الثمل.

امتعاض عكر استبد بي. شممت في الجو رائحة كريهة. ذلك الضابط اللعين أعرف عدائيته كما اعرف انه ضابط أمن. كان الآن يقذف حجراً في البحيرة لكنني كظمت غيظي.

في مواجهتي كان هناك ضابط فلسطيني. سألني :

هاه. نافذ اراك ساهماً هل حوّمت حيفا فوق قلبك؟

زفرت بحرقة. وكشعاع خاطف على شاشة بعيدة عبر طائر أبيض كان سعيداً بطيرانه ثم ما لبث ان هوى فوق البحر سابحاً بدمه. لست أدري كيف تدخل ضابط الأمن قائلاً باستفزاز : الحلم بالعودة إلى حيفا كالحلم بالوصول إلى المريخ. حيفا صارت يهودية ولن تعود.

وعندما سألته لماذا يقول ذلك أجاب : من يترك عنبه سائباً ينبغي الا يسأل لماذا تأكله الثعالب. اليهود أحقّ بأرض باعها أهلها وهجروها.

— لكنك تعرف جيداً اننا لم نبعها. الذين باعوا هم غير الفلسطينيين من اغنياء لبنان وسوريا والاردن. قلت ذلك وأنا اضغط انفجاري. وردّ بلؤم : انتم كالنساء تبكون ملكاً مضاعاً لم تحافظوا عليه حفاظ الرجال.

وقلت وأنا أدرك انني اخترقت الحدود : لكن الذي اضاع المُلْك هم الملوك ونحن لم نكن ملوكاً آنذاك.

وبعينين تنفثان شراً وحقداً قال : أوضح ماذا تعني؟

كان الجو قد تكهرب، وحاول الضباط أن يتدخلوا لكنني كنتُ قد فقدت توازني العقلاني ودخلت منطقة الاعصار. قلت وبيدي سائبة تحت الطاولة على مقبض مسدسي : عنيت يا ابن الزانية جدّ مليكك المفدّى ثم سيدك هذا — مشيراً إلى صورة الملك — الذي تفخر أن تكون عبداً له إلى أبد الدهر.

الذي حدث هو أن النادي اندفع مذعوراً تحت صدى الطلقات النارية التي لم تتح لضابط الأمن ان ينهض من مكانه.

خلال دقائق كانت الشرطة العسكرية والمباحث تطوق النادي.

اعتقلتني الشرطة بينما نقلت سيارة الاسعاف ضابط الأمن إلى غرفة العمليات الجراحية.

●

لا اعتقد انني كنت مخطئاً. لقد حكمت عليّ المحكمة العسكرية بخمس سنوات بتهمة شتم الملك واطلاق النار على ضابط من القوات المسلحة. غير أن ما فكرت فيه فيما بعد : إن كانت البداية من هنا. وإلى أي مدى كنت عادلاً وأنا اجيب على الاهانة بالنار؟

وأنا ملقى في زنزانة السجن العسكري، كانت تؤرقني معادلة العربي المعادي واليهودي، وفي الوقت الذي كنت أتذكر فيه أهالي بلدة صور الفقراء الذين فتحوا صدورهم ومنازلهم للشعب المشرّد والتائه، كنت أرى هؤلاء الجلادين الذين تساووا مع الاعداء.

لقد ضربوني في السجن وأهانوني. شتموا أهلي وبلادي، وقالوا بأننا نستحق ما جرى لنا، واننا نبصق في البئر الذي شربنا منه، ولولا الملك وشعبه لتحولنا إلى عبيد في مزارع اليهود ومنازلهم.

ومع انني قلت لنفسي : إلى الجحيم. ذلك الكلب الذي رميته ليس أكثر

من جلاد أسود في جيش ملك مُباع. إلا أن المعضلة التي كنت واقعاً تحت تأثيرها، هي من أين تكسر الحلقة للنفاذ من الحصار؟ ثم عندما يتساوى الاخوة والاعداء على من تطلق النار؟

لا بد انني كنت تحت سطوة ريح الثارات القديمة التي ورثتها من ميراث حروب القبائل، وفي لحظات خارجة عن نطاق العقل، ربما كانت ردود الافعال العضوية تتأثر بأمواج الفعل المنعكس الشرطي.

بعد أن ضُربت حتى الإدماء وداسوا وجهي بالأحذية وهم يشتمون البلاد التي ولدتني، رغبت لو كنت طليقاً لأقتلهم جميعاً بلا ندم.

الآن انا وحيد في الظلام التام. مُهان ومسحوق كحشرة. انني بحاجة إلى ملايين الشهب لأستطيع أن أرى. ولا بد ان حالتي هي حالة من وقع في فخ في اعماق غابة، واعتقد ان مسألة النجاة والخروج لا تتجاوز نسبة الواحد بالألف، ولأنني كنت من الذين خسروا كل شيء وصاروا في مهب العواصف، راهنت على تلك النسبة الخاسرة.

لقد قال شمشون الفلسطيني منذ آلاف الاعوام وهو سجين: عليّ وعلى اعدائي يا ربّ. ثم هدم الهيكل عليه وعلى من فيه.

□٤□

عندما باغتتنا حرب الـ ٦٧ كنت ما أزال في جناح الضباط بالسجن العسكري. جاءتنا الحرب كمفاجأة من خلال الراديو. لقد سمحوا لنا خلال أيام القتال أن نخرج ونلتقي في ساحة السجن بشكل يومي ولساعات أطول. وسرت شائعات حول اطلاق سراح الضباط وامكانية مشاركتهم في القتال.

كان العدو يركز على الجبهة المصرية لتحطيم القوة الرئيسية بينما كانت جبهتا الاردن والجولان تناوشان اسرائيل.

داخل السجن كنا كالنمور المطوّقة في اقفاصها، وفي تلك اللحظات المهيبة والضاغطة تلاشى عداء الاخوة، لقد برزت من جديد الانياب الوحشية والضارية للعدو البربري وهو يكتسح الأرض ويحيلها إلى حرائق وموت.

كانت هناك صرخة واحدة: اطلقوا سراحنا واعطونا سلاحاً. نريد أن نموت في الجبهة. الراديو وحده كان النافذة التي نطل من خلالها على ما يجري. ومن خلاله كنا نهب المرارة ونحن نسمع أنباء تحطيم الطيران المصري الجاثي في أرض المطار، وبداية الهجوم والزحف على الجبهة الاردنية والسورية.

ومن اجنحة سجن الضباط وضباط الصف والجنود علت الاصوات: ارسلونا إلى الجبهة لنموت. نحن لسنا خونة.

كان الحراس يأتون للتهدئة وايقاف الشغب والغليان الذي انطلقت نذره داخل السجن. وكان المساجين يطالبون بإلحاح: ارسلونا إلى الجبهة الآن وبعد الحرب اعيدوا الاحياء منا إلى السجن.

– الا تسمحوا لنا أن نموت في سبيل بلادنا؟
– الا يحق للسجين أن يحارب؟
– نحن وطنيون.

– ايها الخونة .

– متواطئون .

– يا للخنازير .

– خدم الملوك .

– الوطن في خطر .

– الموت أفضل من سجونكم أيها الكلاب .

وتحت رهبة الحرب كان الحراس فزعين لا يدرون في غمرة الفوضى ماذا يجري وكيف يتصرفون ، فالحرب أفلتت الأمور من عقالها ، وشلّت قبضة الإرهاب والقمع . وبدأ الحراس يتوسلون :

الهدوء . رجاء الهدوء . انما نحن مأمورون وقد رفعنا مطالبيكم للقيادة . الدنيا حرب كما ترون والطاسة ضائعة .

كان أسوأ ما يشعر به الجندي المدرب أن يكون غائباً عن المعركة وهي مشتعلة . وداخل السجن العسكري كان مئات الضباط والجنود يعانون وطأة المهانة والشعور بالنبذ بينما البلاد تحترق .

وفي ساحة السجن بلغ الاحتجاج أوجه عندما استمعنا لأخبار سقوط الجبهة المصرية وبداية اقتحام الجبهة السورية المحصنة . وتصاعدت الهتافات واللعنات ، وتحول جنون العسكريين إلى تظاهرة هجمت نحو الابواب الحديدية مهددة بتحطيمها .

كنا ندور ونصرخ في الباحة الضيقة كمأخوذين كسروا حاجز الخوف ونحن نهتف بالحرية ومواصلة القتال واطلاق سراحنا ، ولكن كانت هناك الاسوار والأبواب المغلقة وبنادق الحراس .

– كيف تسجوننا والدنيا حرب ؟

وانطلقت الهتافات :

– عبد الناصر هات . هات . حرية وانتصارات .

– الموت للعملاء اعداء الشعب والحرية .

– يا فلسطين جينالك تنشيل حمالك .

– عبد الناصر يا جمال يا مقدام عروبتنا .

– فلسطين بلادنا واليهود كلابنا .

– ليا وليا يا بنيا . ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيّا . هاتوا السلاح يا اخواني نحو الجبهات العربيا .

تحت غمرة الانفعال هجمنا على الحرّاس الذين تراجعوا نحو الممرات والجدران . وعلت أصوات : السلاح لقتل العدو لا لقتل الشعب . هاتوا سلاحهم يا شباب ولا تمسوهم بسوء .

لم يطلق الحراس النار . سلموا اسلحتهم تحت وطأة الهجوم العنيف . اخذنا السلاح وارغمناهم على فتح الابواب .

حدث ذلك في اليوم الثاني عشر من حزيران ، يوم نهاية الحرب .

□٥□

بسقوط الضفة الغربية وغزة اكتمل سقوط فلسطين. دخل حلم هرتزل مجاله الواقعي فاستحق أن يكون الأب الروحي لمجد اسرائيل الجديدة التي استُعيد مجدها القديم في القرن العشرين.

عندما وصلت عينا بوس ليلاً لم تصدق زوجتي عينيها وهي تعانقني.

سألتني عن أشياء كثيرة وأنا صامت معظم الوقت. كنت متعباً من المسافات ووعورة الجبال والدروب التي قطعتها حتى وصلت.

أخيراً ها نحن معاً بعد غياب عامين. رائحتها كانت عبقة ولذيذة كرائحة ليل فلسطيني في صيف مزهر بالبرتقال.

انغمرنا. نسينا الحزن والآلام والغياب الطويل في غمرة دفء الجسد. وأنا استنشق عبير جسدها كانت رائحة البلاد تطويني. نسيت الانسان الذي كان مقذوفاً كنيزك خارج عن جاذبية الأرض.

عينا بوس وامرأتي كانتا حقيقيتين الآن، وها أنذا ما أزال حياً تحت أمواج روائحهما العابقة.

هيأت المرأة حماماً دافئاً. تحت الماء الساخن شعرت بالحياة ودفقها الحار. كنت منشرحاً وأنا اخرج من الحمام. كان هناك طعام لذيذ وخمر ونجاوى. شربت حتى الثمل وثرثرنا عن السجن والهزيمة والشوق وطفلنا النائم والأيام الجميلة التي سنعيشها معاً. وكما لم يحدث في حياتنا مارسنا الجنس بعذوبة وشوق الأرض العطشى للماء.

– هل اطلقوا سراحك؟

– لا. هربنا.

– كيف؟

– شلّحنا الحراس بنادقهم وفتحنا باب السجن.

– وحراس الاسوار؟

– تبادلنا معهم النيران وسقط بعض الجرحى.

– كم كان عددكم؟

– لا أدري. كنّا بالمئات. ضباط وضباط صف وجنود.

– وماذا حدث للآخرين؟

– طشّوا في البراري والأودية والمخيمات. الدنيا فوضى وحرب. كل واحد مسؤول عن نفسه في هذه الأيام القلتانة.

– لكن ألن يطلبوك كعسكري؟

– هناك آلاف المفقودين والضائعين والملك وحاشيته مشغولون بالعرش والمملكة في هذه الأيام.

– هل ستهدأ وتعقل؟

– نامي. نامي. غداً نفكر بالمستقبل والعقل.

●

تعتقد هذه المرأة الساذجة والريفية انني مهووس بحالة غريبة تسميها: البحث عن المتاعب. هي تريد أن تبني بيتها الصغير واسرتها، أما أنا فترى فيّ رجلاً جامحاً ينزع لتغيير الدنيا التي تسير بقضائها وقدرها.

لقد كانت امرأة غفورة، مستكينة. مركز العالم في رأسها عينا بوس ودارها التي اعتنت بها وزينتها بالاشجار والورود، وزرعت في ارضها البطاطا والبصل والثوم وحمتها من الحيوانات الداشرة والطيور ودجاج الجيران.

وعندما كنت احدثها عن الجراح والبلاد السابحة بدمائها، وعجز الناس ورائحة الايام العطنة، كانت تحلم بأيام رغدة ورجل مقيم وبيت لا تزعزعه الرياح.

إنها خائفة من فقداني رغم قناعتها الداخلية أن ما أقوم به ليس سيئاً أو قذراً.

– لو الناس جميعاً مثلك لمااحتججت لكن أنت وحدك يا نافذ تحمل الدنيا ومتاعبها على كتفيك.

– لا. لست وحدي يا وديعة. انما الناس يلزمهم وقت ليفيقوا.

– أنت تتعذب والناس راضون وسعداء بحياتهم.

– غير راضين. هم مغلوبون على امرهم.

كانت تصمت في منتصف الحوار. انها تتوجس من غضبي، ومن احساسها الدوني بالفرق بين مستوى رجل متعلم ويحمل شهادة عالية، وامرأة خرجت من المدرسة في الصف الخامس ابتدائي.

– من الآن فصاعداً سوف لن تتدخلي في شؤوني. أنا اعرف ماذا أفعل. لن ينقصك شيء أما السياسة فاقفلي أذنيك عنها وصوني لسانك.

●

منذ اسبوع وأنا استلقي بين قبور أهلي. بين الأضرحة حفرت حفرة وغطيتها بأغصان الشجر. زوجتي كانت تأتيني بالطعام والقهوة والشاي. أحياناً تسألني بخوف عن حالتي فلا أجيب. انها تعتقد انني مصاب بحالة قريبة من الجنون. في الليل على ضوء فانوس الكاز تجلس قربي صامتة وأنا ممدد فوق بطانية، أنظر من فتحات الاغصان إلى النجوم البعيدة. كنت أرى عبراتها وهي تنساب وأحياناً اسمع شهقاتها. وذات ليلة أوضحت لها بأن هذا الوضع حالة أمنية خوف المداهمة، وينبغي الا يعرف الجيران وأهل القرية بوجودي، وعليها الا تقلق لأن الحالة مؤقتة وعما قريب سأعود إلى حياتي الطبيعية.

غير أنني في حقيقة الأمر كنت أعبر وضعاً غريباً. كنت في حالة ذهول وشرود وكأنني خارج العالم. انني أهذي وأتحدث مع القبور وأحس أمواجاً من العجز والعزلة تغمرني. هوذا الموت يطوقني من كل الجهات وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً. لا أعرف ماذا سأفعل بعد هذا الدمار الذي حدث. الدمار الذي اجتاح كالإعصار هذه البلاد الملعونة فزعزع توازن العقل وأطار الصواب.

الأيام الستة تساوت مع أيام حيفا وما تلاها. وها هم الذين قال عنهم نبيهم بأنهم خير امة اخرجت للناس يسقطون تحت حوافر الاعداء. الذين ما كانت الشمس تغيب عن امبراطوريتهم، ها هم يتحولون شتاتاً من العبيد والقتلى والجرحى والمشوهين والندابين.

سبايا نبوخذنصر وعبيد بابل أخذوهم أخذ عزيز مقتدر، وساقوهم بالرصاص والقنابل إلى المقابر والكهوف والذّل الأبدي.

تمتد اصابعي إلى جدار الحفرة فأشعر ببرودتها وهشاشة التراب. اضغطه فيتفتت ويتحول إلى ما يشبه الرمل بين اصابعي. افكر بشعب الصحراء الذي سيُعاد إلى صحاراه ومضاربه وازمنته الرعوية. أنكون فعلاً شعباً من الرعاة لا يستحق غير الصحاري؟ أم أن العالم يثأر من هؤلاء الذين دقت حوافر خيلهم أبواب باريس وغرناطة؟ أم انهم صليبيو القرن العشرين يعودون تحت راية داوود ليقذفوا بالاعراب إلى البوادي والقفار التي جاؤوا منها؟

لا بد أنني ملتاث وواقع تحت سطوة الهزيمة والعار. ان العلامات القديمة ووشم سنوات القهر الداخلي والكبت والاستبداد والجوع والخيانة والكذب والعزلة، تطفو الآن خارجة من اعماق المستنقع شبيه اوراق الشجر الاصفر المتساقط تحت هذه الريح الصرصر.

بدأت كوابيس مخيفة ودنيئة تنتابني. كوابيس اغتصاب وعُري. أكثر ما كان يجرحني رؤيا أمي وهم يخرجونها من القبر عارية ثم يجبرونني تحت التهديد بالقتل على اغتصابها.

وفي لحظات خارجة عن نطاق التفسير والتوازن أرى نفسي عارياً في فضاءات بعيدة وأراضٍ مهجورة، مبلّلاً بالبول والغائط. ابحث عن ماء لأغتسل فلا أجد غير الغبار أو الوحل. ثم لا ألبث أن أرى جسدي غائصاً في مستنقعات ونفايات. اهيم في البراري باحثاً عن صيد ومعي بندقية وإذ أرى طريدة وأهمّ باطلاق النار تتحول البندقية إلى قصبة مجوّفة. اضغط فلا تنطلق. انهض على صرخاتي في الحلم فأفاجأ بالليل الجاثم ووحشة العراء القفر.

في الصباحات وأنا اتناول قهوتي وادخن تمرّ على شاشة الجنون والعقل المضطرب قوافل القبائل التي انتهى زمانها. النفوس التي حُقنت بأمصال المهانة والموت فانكسرت وتراكم الرماد فوق وهجها القديم.

– لا بد أن سيفنا سقط وما من أحد ينحني ليلتقطه، وشمسنا انكسفت. وها هوذا زمانهم يشرق تحت وهج هذه الشمس الفولاذية.

●

مرّ الاسبوع الثاني وأنا ما زلت بين هذه المقابر. اخرج في الصباحات نحو الهضاب وشعاب الأودية موغلاً داخل الاحراج. اتذكر سحابات الطفولة العابرة بين هذه الادغال. الطيور والصخر واشجار البطم والزعرور والزعتر وحقول الزيتون والمغاور القديمة. انني احبها الآن أكثر مما مضى وأشعر بالرغبة الجامحة للانصهار فيها. تحت الندى والشروق البكر للشمس تبدو لي خضراء وصلبة ونابضة بالحياة. اجلس على مطلات الاودية فوق هذه الصخور الرمادية الرطبة وفي مواجهتي السفوح والقرى البيضاء وهذه الاشعة الدافئة المنسابة إلى مسامّي ومسامّ الصخر والشجر والأرض. هذه هي البلاد العذراء ملء العين والقلب أسمع اصداءها الداوية في دمي. هنا ولدت. دروبها أكلت قدمي وأنا اطارد الطيور، ومن شمسها اللافحة انكوى جلدي واسمرّ. بعصارة خضارها وفواكهها تغذت شراييني وتحت ظلال شجرها ومنازلها سمعت اغاني الرعاة وأغاني الأم التي توارت. البلاد

الجميلة، الدافقة، المضاءة، الخصبة، الخضراء على مدى الازمنة. أرض الآباء والأجداد. أعود الآن فيها غريباً بعد أن سقطت اشجارها ومنازلها وهضابها وشمسها واغانيها تحت حدّ السيف.

●

في المساءات استلقي واقرأ وأفكر كيف اخرج من هذه الحالة الكهفية. حالة الشلل وحسّ التأنيب والشعور بالدونية. تحدثني زوجتي فلا أشعر برغبة الحوار. تبدو الأشياء كالجثث أو كهذه القبور الجامدة. كيف تكون حالة الرماد والرمل ورائحة غبار التبن وعطن الاثاث القديم؟ أنا كنت داخل هذه الحالة التي لا تشع بغير الموت والفساد.

فيما مضى كان العار يجلل الفلسطيني، الآن العار تعمم حتى صار قومياً. بلاد بشرها بعدد رمل البحار والنمل! بلاد كان خليفتها في ماضي الدهور يخاطب السحابة: اينما رحلت يأتيني خراجك. هي ذي سحائبها وملوكها وخلفاؤها وآلهتها وصلواتها وأكاذيبها وغطرستها وأكاذيبها وحضارتها الجوفاء، تتحوّل إلى مستحاثات.

ومع ذلك فأنا لست حزيناً فيما أظن. فقط أتساوى مع الأرض. في الاماسي اشم رائحتها وامرغ وجهي فوق هذا التراب الغضاري. ولأنني وحيد وعاجز، اتساءل ان كنت جديراً بهذه الأرض وهذه الروائح التي تهب عليّ من الشجر والزهر والمرأة الجاثية قربي.

غير أن الغزاة الغرباء تقدموا كثيراً في شرايين الأرض، وتقدموا أكثر في حقول الدم ومسامات القلب.

وها أنذا، في الوقت الغارب، نهب فقدان التوازن، مطوّق بجموع القتلة من كل حدب وصوب، تفترسني الكوابيس والأشعة التي تعمي البصر والبصيرة فيلتبس علي الأمر ويختلط القتلة تحت هذه الشموس التي تتشظى تحت عيني.

اعتقد ان البحر الذي كان ساجياً ورائقاً فيما مضى ، قد اعتكر . صخرة ضخمة سقطت وغارت في الاعماق فأخرج المستنقع من احشائه كل الجرائم والأوشال . الاستكانة والكذب والعجز والخيانة والاغتصاب والاستبداد والانانية والصلوات والحقد البدوي ، كل هذه الجرائم خرجت من اعماق الوحل وطفت على وجه المستنقع .

●

في نهاية الاسبوعين هزل جسدي . تحولت إلى انسان عصابي يثور لأتفه الأسباب . تلك الزوجة المسكينة وحدها كانت تدفع ضريبة انهياراتي . كانت تلازمني وتحاول بكل نبلها الانساني التخفيف من حالتي . تهيء الشاي والزهورات وتحضر الماء الساخن وتنام قربي ، وتبكي دموعاً حارّة عندما تراني مريضاً أو عصابياً .

بعد أن اهدأ تحدثني عن ضرورة التماسك ، وتذكرني بصلابتي القديمة ، واحلامنا عن بناء حياة جميلة وهادئة ، وعن الاطفال الكثيرين الذين سننجبهم حتى لا ينقرض النسل الفلسطيني .

انها تشجعني : يكفي ما أصابنا يا نافذ . إذا أصابك مكروه ساموت . أنت سندي وحياتي والبلاد بحاجة إليك . فكر بالمستقبل يا عزيزي . لقد حدثتني عن خالك الكولونيل وكيف وضع يده على كتفك وهو على باب الموت . أبهذه الحالة التي أنت فيها ستكمل طريقه التي بدأها ؟ أنظر حولك . إلى هذه القبور التي صرت كأنك واحد منها . شف حالتنا في كل مكان من بلاد فلسطين . صرنا شعباً من الغجر والبدو الرحّل . ترى من لنا غير أمثالك من الرجال الذين يشيلون الحمل الثقيل في أيام الضيق ؟

وكنت أواسيها وأعدها بأنني سأعود عما قريب إلى حالتي الطبيعية ، وما بي ليس أكثر من صدمة عابرة لن تطول .

كيف اشرح لامرأة عادية ، نصف متعلمة ، في رأسها ثلاث غرف : غرفة للأثاث والمطبخ ، وغرفة للنوم والاطفال ، وغرفة للزوج الحارس والدافئ ، أن الريح التي هبت أفقدت الناس معرفة الجهات ، وان هؤلاء الاعراب الذين داهمهم الذئب في غفلة النوم لا يصلحون إلا للموت والافتراس .

ثم كيف أوضح لها أن المقهورين والمعزولين والجياع والمسروقة أوطانهم والسجناء ، لم يخوضوا الحرب ، وأن هذه الحرب اللعينة كانت حرب الجنرالات والملوك والخنازير الذين شرّدونا وامتصوا دماءنا منذ عشرات السنوات ، الذين كانوا يستمتعون بخيرات الأرض ويتقاضون ضرائب الشعب ثم يعتقلونه ويطلقون عليه النار بلا محاكمات ويزجون به في غياهب المعتقلات .

أولئك الذين باعونا في الـ ٤٨ هي ذي سلالتهم الجديدة تتابع وفاءها للميراث القديم . الزلزال الذي حدث زعزع الجذور ، وعرّى الصخر ، وهدم الإساسات الواهية المبنية على الرمل ، وجميع القناعات القديمة بدءاً من الآلهة حتى الاسرة والدولة قد تمرّغت في الوحل . لم اعرف كيف اشرح لها ذلك ، لكنني صرخت في وجهها ان تكفّ عن الاسئلة والترهات .

●

في هذا الصباح المنعش جاءت زوجتي بالطعام . جلسنا معاً وبدأنا نأكل . كنت منشرحاً وأنا افكر بالخروج من حالتي التي شارفت حافتها المريرة والتطهيرية . لقد بدا لي استمرار هذا الوضع سخيفاً ، ولا بدّ أن يودي إلى الجنون أو الانتحار في النهاية . كان لا بد من رؤية الضوء في هذا الظلام والخروج من سطوة الكابوس الذي بدا وكأنه سدّ منافذ الروح . قالت زوجتي : انت تبدو بصحة جيدة هذا اليوم . ولم أجب .

وتابعت : أملي أن اراك كما كنت في سالف الأيام . ولم أجب .

وقالت : الناس في القرية بدأت تتحدث عن الفدائيين. وتوقفت اللقمة في يدي : ايه. ماذا يعني ذلك؟

قالت : الشباب تحركوا وأنت...

لم تكمل عبارتها لأن كفّي صفعتها. مرة. ومرّة. ومرّة. ضربتها بعنف وشراسة ثم قذفت الطعام بوجهها. في غمرة هيجاني صرخت بي : ولكن أنا لست عدوك. هم الذين اهانوك وليس أنا!

ارتجف شيء ما في اعماقي. برق خاطف اضاء وهزني. تحت الضوء رأيت دموع المرأة وآثار الصفعات وعجزي. كانت أمامي ترتعش وتشهق.

— اوه. يا للعنة!

لقد وصلت الحماقة حدودها المؤذية، وها أنت تثأر من نفسك في أرض الدمار والحرائق التي اجتاحتك. وفي الذاكرة مرت حادثة أبي وأمي في حيفا.

لم يكن الأمر مؤلماً بقدر ما كان مبتذلاً ومهيناً. لقد أفصح العجز عن سريرته بتهشيم وجه المرأة البريئة التي ظلت وفية لك خلال سنوات الجوع والسجن. شيء ما بكى في داخلي بصمت.

تقدمت من زوجتي واخذتها بين ذراعي. ضغطتها الى صدري ومسحت دموعها : سامحيني يا حبيبتي. ما قصدت الاساءة لك. امر تافه حدث. اغفري لي.

وضعت رأسها في حضني. دموعها انسابت فوق صدري حارّة. كنا نبكي الآن معاً. بكيت بغزارة بكائي في ساحة جامع عمر بن الخطاب على أمي وأهلي المفقودين.

●

تلك الليلة كانت آخر الليالي في حوش القبور. سقط زمن وابتدأ زمن آخر. في صباح اليوم الثاني هدمت الكوخ وسويت الحفرة ثم قبلت الأضرحة، واتجهت نحو البيت.

لقد اتخذت قراراً بمواجهة الرياح.

الفصل الثالث

□ زمن الصدمة والموت □

□ ١ □

عينا بوس .

القرية الصغيرة الآن والمليئة بالآثار ، والتي تبعد عن نابلس عشرين كيلو متراً ، والمغطاة بأشجار السنديان والزيتون والكرمة والعرعار واللوز .

هذه التي كانت جزءاً من مملكة قديمة من ممالك الكنعانيين ، بناها الملك عين يا بوس في القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم دمرها سرجون الثاني الآشوري إبان السبي الأول في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد ؛ الأرض الخصبة والخضراء على مدى الفصول ، دخلت الآن تاريخ احتلالها ودمارها الجديد .

ها أنذا اغادرها بعد شهرين من الاعتكاف والغياب عن حركة العالم ، إلى نابلس .

انني أرى الدنيا كرجل خارج من كهف مكث فيه دهراً .

البشر والسيارات والحركة والأصوات . كل شيء يبدو كما هو ، كما كان . ثمة جنود الاحتلال يتجولون في الشوارع بأسلحتهم الرشاشة . انهم متأهبون ومنتشون ببسماتهم وبضربات احذيتهم العسكرية فوق حجارة الأرصفة .

الناس في المتاجر تشتري وتساوم ، والمقاهي مكتظة ، وطلاب المدارس يتأبطون كتبهم وكراساتهم باتجاه المدارس ، والفلاحون يسرعون نحو سوق الخضار والفواكه ليبيعوا محاصيلهم ، والنساء افواج أمام حوانيت النوفوتيه .

— البلاد بخير اذن وربما كنت وحدي المُصاب. هجست بذلك وأنا اتجه نحو الحوانيت لأشتري ثياباً ومؤونة للبيت وبعض الادوات الطبية.

كان قراري في البدء ان اشتغل في الطب العربي لمداواة الشعب في الأرياف. جدّي كان طبيباً عربياً يستخدم الأعشاب، وفي طفولتي، عندما أعود من حيفا، كان ذلك الجد يأخذني إلى الجبال والغابات ويعرفني على الأعشاب النافعة لأمراض المعدة والكبد والكولون والتيفوئيد. وبعد أن مات أوصى زوجته أن يكون مختبره في القبو الأرضي من بيته لنافذ إذا عاد إلى عينا بوس يوماً. خلال فترة اعتكافي وانقطاعي عن العالم فكرت بمختبر جدي البدائي وبتطوير وسائله الأولية من خلال دراستي لعلم النفس في جامعة بغداد، وهكذا قررت شراء مجهر وأدوات حديثة لمخبر تجارب وتحليلات ووسائل تقطير وترشيح.

وفي فترة السجن والاعتكاف استطعت قراءة الكثير من الكتب النفسية وعلوم الطبيعة بالعربية والانكليزية، كما درست أساليب وطرق التنويم المغناطيسي. كتب لفرويد ويونغ وبافلوف ولو بون ورايش وابن سينا والرازي والشذور الذهبية لأحد الأطباء الأتراك.

أنا الآن في طريقي إلى القرية، وهذه المشاريع تتماوج في رأسي وأنا غير موقن بعد من فعالية السبيل الذي اختاره. افكاري تهجس بأمور أخرى أكثر جدوى وتأثيراً، وعندما نطقت زوجتي بأخبار أولئك الذين اختاروا طريق النار والموت، لم أكن بعيداً عن تلك النار التي تحرقني وأتلظى تحت لهيبها، وفي لحظة وأنا في شوارع نابلس خامرتني فكرة مجنونة: أن أهاجم إحدى دوريات العدو بخطف رشاش أحد أفرادها وإبادة الدورية في وضح النهار.

كان الأمر ممكناً لكن النجاة كانت مستحيلة، وكان التنفيذ يساوي الانتحار الفردي.

وهكذا تابعت سيري بعيداً عن الدورية لأوقف هذا الغيظ المشتعل. كنت أضرب جدران الأبنية وأسحج اسناني وأتنفس بقوة لأزيح الضغط الداخلي. وأنا ارفع رأسي نحو النوافذ العالية والسماء فاجأني مقر الحاكم العسكري. اغمضت

عيني وقلت: الآن عليك ان تهدأ وتعقل يا ولد. لقد لزمهم أكثر من نصف قرن وهم يخططون لاجتياحها. بالسيف أُخذت وبالسيف وحده تعود والزمن هو الذي يصقل السيف.

وأنا انعطف نحو السوق المركزية للمدينة داهمتني فكرة: وحدك ستكون كالشجرة في مهب الاعصار، وإذا لم ينهض هذا الشجر النائم فلتذهب الغابة إلى النار.

●

أختار الآن طريق العمل الطبي. ان هذا سيفسح أمامي مجالاً واسعاً لتقديم العون للشعب الذي هوى في فراغ الهاوية، بعد ان تخلت عنه آلهة السماء الجوفاء والأرض الرخوة.

كنا، في هذه الغمرة، مهانين، وجائعين، ومرضى، ومنذورين للذبح، قذفت بنا القوة المادية الغاشمة والعقل الذري خارج التاريخ.

وكان الشعب المُشَظّى والمسلوب والمغترب، ما يزال أسير الخرافة والقدر والألواح السماوية. يتداوى في أحوال المرض بالرقى والتمائم والكتابة الدينية على البيض ويقدم النذور والاضاحي للأولياء الصالحين، يقف فقراؤه المساكين تحت الحرّ والمطر ساعات وأياماً على أبواب المستوصفات والمشافي ليحصل على علبة اسبرين أو زجاجة ميكرو كروم أو ابرة بنسلين، ثم يذهب ويستلقي على فراشه ليموت بعد ساعة أو يوم أو شهر أو عام.

●

بعد شهرين سألتني زوجتي: أخيراً ماذا قررت؟ وإذ شرحت لها بأن الشعب يحتاج المعالجة والدواء وانني اكتشفت من خلال تجوالي في البراري أعشاباً ضد أمراض الملاريا والتيفوئيد وأوجاع الكولون والاسهال، شعرت المرأة بالراحة. ها أنذا أعود انساناً طبيعياً، هادئاً ومستقراً ينحصر اهتمامه بأعمال انسانية بعيدة عن السياسة ومصائبها.

هأنذا اتجول بين قرى بيت فوريك وجمّاعين وعين البيضا وعزموط وكفر قدوم وطوباس والقرى والمزارع الأخرى أداوي الشعب مجاناً، وخلال تجوالي أتعرف على أحوال الشعب وآلامه والمصاعب التي تنغّص حياته. كانت سعادتي بلا حدود وأنا اداوي المرضى وأواسيهم ثم أسهر وأنام في تلك القرى، وخلال سهراتنا ولقاءاتنا نتحدث في أمور الطب والعلم والتقدم العقلي الذي وصلت اليه البشرية بينما ما نزال نحن في مؤخرة الدنيا وظلام القرون القديمة. كنت اصطدم أبداً بجدران من الاسمنت المسلح. جدران بناها الايمان الغيبي وحصّنها في وجه غزوات العلم والمنطق، ومع ذلك كنت أكابر ضد هذا الحائط في محاولة احداث ثقب بخرقه رغم التهم التي كانت ترشقني بالدهرية والالحاد.

وعندما كانت الاحاديث والحوارات تصل إلى أبواب السياسة، يرتدي الجدال طابعاً عنيفاً واتهامياً وساذجاً حول الضعف والقوة والبطولات الفردية وتخلي العرب عن فلسطين والخيانات ووقوف الله مع اليهود ضد العرب. كنا ننتقل إلى أسباب نصرهم وهزيمتنا خلال ثلاث حروب، واننا منذ الـ ٣٦ حتى الآن نقاتلهم ونخسر، بينما نحن أكثر عدداً منهم وأكثر شجاعة واقداماً.

وإذا كانت الآراء تتفق حول دعم المستعمرين لهم وقلة الأسلحة والذخائر وانقساماتنا مقابل وحدتهم وتماسكهم، كنا نختلف حول الأمور العقلية والاجتماعية والنفسية.

كانت راسخة في قرارة أعماقهم الطفولة العقلية المؤمنة بالأساطير والأوهام وأشباح السماء. حالة البداوة القديمة المتناسخة فينا والتي تستعيد عصور الجاهلية الأولى أو زمن الخلفاء والرسول.

عندما ألمحت إلى العصور الحديثة وعصور الذرة والعالم الذي صعد إلى القمر بينما ما نزال نرى فيه كوكباً مقدساً، قال أحد الموجودين بأن اليهود مؤمنون بدينهم وأنبيائهم. وقلت: ولكن اليهود وحدوا بين الدين والوطن بينما نحن ما نزال نفصل الدين عن الوطن ونحوله إلى طقوس وعبادات. لقد نسينا إسلام

السياسة وأمسكنا بإسلام الشريعة. أنبياء اليهود كانوا ملوكاً، وإلههم يهوه جسّدوه في صورة انسان قاس ومتوحش يكره كل شعوب الدنيا عدا اليهود شعب الله المختار. اليهود كان دينهم مادياً دمج بين حياة الشعب وحروبه وطقوسه الروحية لأن الكهنة هم الذين وضعوا الدين ولم يكن وحياً، وهم الآن يرفعونه راية غزو سياسي لبلادنا.

بيت مختار قريتنا وربعته الواسعة ملتقى السهارى بعد أن يهبط المساء. على الأرض المفروشة بالبسط وحصر القش وجلود الخراف يجلس الأهالي يدخنون ويشربون الزوفا والشاي ويثرثرون في أمور الدنيا والبلاد. عندما يدخل الشيخ أحمد القطناني إمام الضيعة ينهض الحاضرون تكريماً واجلالاً له. شيخ شاب دون الأربعين، لحيته سوداء ونظراته ثاقبة، جاء إلى القرية منذ عامين في ظروف غامضة هارباً من جور اليهود وملاحقتهم لعائلته المتدينة في «سفارين» التابعة لقضاء طول كرم كما يقول. يتحدث الشيخ القطناني عن اجداده علماء الحنابلة ومنهم محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، وشمس الدين أبو العون اللذين كانا من علماء الحديث والاصول والادب في القرن الثاني عشر الهجري. جده أبو العون درس وأفتى بنابلس وفيها توفي. وقد انتقل وهو فتى مع عائلته وأبيه الشيخ إلى قرية «فلامه» التابعة لمدينة قلقيلية، ثم يروي عن بطولة القرية الصغيرة في عام ١٩٥١ عندما تعرضت لهجوم يهودي قدر عدد افراده بـ/١٣٠/جندياً هاجموا القرية بالبنادق والرشاشات والالغام واستمر الهجوم أربع ساعات متواصلة مني فيها العدو بالفشل بعد أن استشهد مختار القرية وجرح بعض ابنائها بعد أن دافع الحرس الوطني والأهالي عن القرية ببسالة نادرة وردّوا المعتدين على اعقابهم، وكان هو ووالده الذي جرح بين المدافعين عن القرية. ومع ان ذلك الشيخ الذي يبدو ورعاً وتقياً كان يدافع عن فلسطين ويندد باغتصاب اليهود لأرض المسيح ومحمد، الا انه كان في خطبة الجمعة وسهرات الليل يدعو للحياد عن الأمور السياسية والاحزاب التي تورط الشعب وتودي إلى المهالك، وما كان ليترك مناسبة إلا ويتهم فيها الدهريين والملحدين والشيوعيين، عملاء موسكو، بأنهم سبب البلاء، وهم الذين جاؤوا بالبدع الملحدة التي تحل الانسان محل الاله وتعيد أصل الكون للطبيعة والمادة.

عندما كنا نلتقي ومعي حقيبة الادوية التي احملها في اسفاري بين القرى ، كان يوقفني ويسألني عما أحمل في حقيبتي فأرد بأنها مليئة بالأدوية للمرضى ، وبذكاء مستبطن بخبث يفاجئني عما أحمل في صدري ، فأقول وانا مدرك ما يرمي اليه : فلسطين وآلامها . ويقول وكأنه يعرف جوابي سلفاً : إذا لم يكن هناك ايمان فإن الادوية يا نافذ لا تفيد ولا تنفع وفلسطين لا تعود .

واذ أسأله عن هذا الايمان فيقول بورع : ايمان بالله ورسوله واليوم الآخر والثواب والعقاب .

وفي السهرات ومجالس القوم النهارية كان لا يني يبشر ، وهو يسبح بسبحته الطويلة الصفراء : قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم . يا ابنائي . ان الاعراب فسدت في الأرض والمفسدون لهم النار . قل ان الحكم اله واحد لا شريك له . ويتابع : ان الله جل جلاله لا يفرق بين عربي ويهودي وأعجمي لأنه بعيد عن الهوى . لا فرق في الدين بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى . فالاسلام جاء للناس كافة ، ونحن المسلمين زغنا عن طريق الهدى يوم تركنا الدين واتبعنا الدنيا وملذاتها وحماقاتها . يقول رسول الله : إنما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . انظروا إلى ديار المسلمين اليوم وقارنوا بينها وبين الديار الأولى . لقد انتشر الفساد في النساء والخمر والميسر والنميمة والتفرقة وعلوم الدهرية والإلحاد . كيف يكون الله مع قوم ما عادوا مع نفوسهم ، وكيف يذكر الله قوماً ما عادوا يذكرون الله؟

عندما كنت استمع اليه وهو محاط بالأهالي من بسطاء الشعب المؤمنين بما يقول ، والمدركين قصورهم الديني أمام علمه وما يحفظ من السور والاحاديث ، كنت أحس الحرج وأنا احاوره في هذه البقعة الخطيرة والمحرقة ، حيث يبدو هو محمياً ومحصناً بألفي عام من اليقين المطلق ، بينما أخوض معركة خاسرة ليس معي فيها إلا نور باهت من العقل الذي لم يسطع نوره بعد .

كنت اخاطبه بسيدي وأنا أوضح بتوجس ان علينا استعادة سيرة الأوائل الذين حملوا الدين والسيف وحرروا بلاد العرب من الرومان والفرس وجمعوا المسلمين كتلة واحدة في وجه اعدائهم .

في اعماقي كان هناك رفض للافكار الانهزامية والمحايدة التي يبثها الشيخ ، والتي تستغل سذاجة وجهل وغريزة الشعب . ولذا عندما كنت أقول له : ولكن يا سيدي أنت أدرى بأننا هزمنا بالعقل والعلم . وسنظل نهزم ما دمنا نقاتل قتال الجاهلية .

ينتفض صارخاً : العلم بدأ بالمسلمين وانتهى بهم . الأقوام الأخرى كانت ترسف في ظلام العصور الوسطى والجهل عندما كان المسلمون يشعّون على الدنيا نور العلم .

وأقول للشيخ : انك تعني علوم الدين .

فيعلو صوته : وعلوم الدنيا أيضاً . من المسلمين خرج ابن سينا وابن حنبل والفارابي وابن رشد والغزالي والأشعري .

أقول بهدوء مصطنع : انت يا سيدي عالم جليل وتعرف أن الذي بقي هو الغزالي والأشعري وهؤلاء علماء دين ومنهم لم نرث غير الطقوس والعبادات والبحث في صفات الله وتجلياته اللا محدودة .

ويسألني الشيخ بامتعاض : ماذا تعني؟

أقول : فيما ورثنا من هؤلاء؟ لا وطن ولا فلسطين ولا من يحزنون . صلاة وصوم وقراءة كتاب الله ودعوات وترتيل آيات في مناسبات الحزن والموت وعقود الزواج والخلافات الشخصية ونوائب الدهر .

يمتعض الشيخ القطناني من دهرياتي وثقافتي الطبيعية والمادية ، ولكي يهرب من الحوار ، يغمز من جانبي بأن الملحدين والمشركين لا يمكن أن يحرروا فلسطين أو القدس الشريف .

يبدو مهتاجاً وهو يتهم الشيوعيين بأنهم سبب خراب الاسلام وضياع

فلسطين، وأن ستالين اعترف بتقسيم فلسطين بعد أن عقد صلحاً مع المحور، ويقول بغضب: ليعرف القاصي والداني في بلادنا ان الدين والشيوعية لا يتعايشان. وفي غمرة هياجه راح يلمح إلى أن العمليات الفدائية ليست أكثر من عمليات انتحارية تقوم بها مجموعة من الشباب الاهوج المورّط للشعب البريء. ويبدأ الاشاده بمواقف الحاج أمين الحسيني الذي كان عدواً للانكليز واليهود.

على غير توقع بمجيء الاعتراض عليه من برهوم الصقر راعي اغنام الضيعة: اسمع يا شيخ أحمد! والله لولا عبد الله والمفتي ما ضاعت فلسطين. بشرفي ما حكاه الدكتور نافذ عين العقل. نحنا والله ما فينا غير الحكي. بنحكي عن الرسول والخلفاء وفعلنا غير فعلهم. أي والله، والله، واحد مثل أبو ذر الغفاري بيساوي مليون رجل مثل رجال زماننا. خلصنا بقا يا شيخ أحمد من هالخلط.

يُباغَت الشيخ من نبرة برهوم الراعي فينبر في وجهه: انت يا غلام يا برهوم. يا بهيم. ماذا تفقه في الدين والسياسة. تعلمتها وراء النعجات؟. والله ما عاد ناقصنا غير الرعيان يعلموننا أمور الدين والدنيا. عندما يتكلم العلماء يسكت الجاهلون والحمير. هل سمعت يا ولد؟

– لا. ما سمعت! شو أنت رجل علم ولاّ رئيس دولة أو حاكم عسكري!

ويصرخ المختار في وجهه: اخرس ولك برهوم. هادا الشيخ احمد وحقه علينا جميعاً. عيب هادا الكلام يا ولد.

سعدون فياض معلم المدرسة يدافع عن موقف الراعي منتقداً موقف الشيخ وقسوته ثم يركز الهجوم على عبد الله، والمفتي وتحالفه مع الالمان وطموحاته في السيطرة والزعامة، الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه هو الانقسام ورغبة كل زعيم في أن تكون كلمته هي العليا. في هذه البلاد كل انسان رأس كبير ومأساتنا مأساة قيادة تجمع الشعب ويحبها الناس. الشعب ضائع والراعي مفقود.

يحوقل الشيخ أحمد ويبسمل ثم تنعقد حاجباه غضباً ويبدأ يمسد لحيته بعصبية. يحسّ بأن العامة تطاولت عليه هو الجليل المبجل والذي لا ينطق إلا بالحق فيتململ في جلسته. يقول وهو يهمّ بالنهوض: يا أهل عينا بوس. أنا عارف ان الشيطان يوسوس بينكم، والمخرب الأكبر في هذه البلاد سيقودكم إلى الدمار. انني اعرف أنه لا كرامة لنبي في ارضه ولكنني أقول لكم إذا لم تتوبوا وتبتعدوا عن المشاكل ووسوسات الشياطين والابالسة فلا تلوموا إلا انفسكم. إن الله ورسوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي هذه الضيعة لا أرى إلا الزيغ ونذر الشر والابتعاد عن الصراط المستقيم. قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم، وقد أعذر من أنذر.

□٢□

وفي الوقت الذي كان الشعب فيه مقهوراً وغافلاً ، وعائماً فوق الغمر ، وكهانه خارج التاريخ ، كان المنتصرون الاعداء يمسكون بأعمدة التاريخ والحق الالهي الذي صاغه كهنة أورشليم وقادتها العسكريون من اسمنت الكذب والغطرسة : إذا كنا نملك الكتاب المقدس ، وإذا كنا نعتبر انفسنا شعب الكتاب المقدس فان علينا ان نمتلك أرض الكتاب المقدس ، أرض القضاة والآباء . أرض اورشليم والخليل واريحا ، وعلى العالم ان يفهم ان سيناء والجولان ومضائق تيران وجبال غرب الاردن تقع في قلب التاريخ اليهودي .

القوة التي حوّلت الكذبة والميثولوجيا إلى تاريخ حقيقي ، كانت تتحدث ، وأمام هذا السبط البربري الجديد ، كان علينا أن نتحول إلى عبيد أو عنقاء النار التي تحدثت عنها أمي في مقبرة حيفا .

ولما اخترت طريق الطب لم أكن ناسياً طريق الحريق . كان الرأس يرسم أبداً تموجات العواصف والحقول المزدانة بلون الارجوان . لكن ثرثرات الليالي وقيلولات ما بعد الظهيرة والصلوات واحتساء الشاي ودخان النراجيل والعاب الداما والنرد والحياد عن الشر والأمان الشخصي ، كانت تغطي الافق وتعبئ فراغ الساعات والأيام وتغلق مسام الروح وتراكم الرماد فوق النيران المطفأة .

تحت ذلك الافق الرمادي ارتفع صدى الانفجارات التي دوت في غور الاردن ، ترددت وكأنها ردّة الروح للاجساد المسجاة في حيفا وعكا والقدس وغزة ويافا ودير ياسين وكفر قاسم والقسطل والبرة وقبية وقلقيلية ، الأجساد التي سقطت تحت الانهدامات وفي البراري الوعرة واعماق البحار .

لقد سطع البرق من الافق الرمادي المتراكم . فهل كانت العاصفة على الأبواب والشعب غافل ؟ أم أن البحر الذي كان يبدو ساجياً ومستكناً كان يختلج بثيرانه الوحشية التي استيقظت أخيراً في رهبة هذا الليل القاتم ؟ .

●

ومع انني كنت أرى اليأس والاستكانة في اعماق الشعب وعبر حياته اليومية الباحثة عن الطعام والمأوى ومواجهة الأمراض والأوبئة والكراهية وفقدان الأرض والسلام الشخصي ، إلا انني كنت أرى الاصرار والحقد واحتدام النفوس التي تجيش احتجاجاً على الوضع غير البشري الذي قُذف نحوه هذا الشعب التائه .

وتحت ستار حياة يومية تبدو عادية وساذجة ، كان عليّ أن اظهر رجلاً هادئاً ومحايداً يكرس وقته للبيت والعائلة وكسب المال ومداواة المرضى واجراء التجارب على الاعشاب في المختبر الذي طورت وسائله في قبو بيت جدي .

وفي ظل هذه المظلة الخادعة لم تكتشف زوجتي بأن الغرفة الصغيرة المجاورة للمختبر قد تحولت إلى مستودع ذخيرة يحتوي رشاشاً من نوع كارلوستاف وعبوات ناسفة وصندوق قنابل من مخلفات جيش الاردن التي تركها بعد انسحابه في المغاور ، وبارودة دك مفضضة ومسدس باراشوت ، وثلاثة كلاشنكوفات روسية وبندقية ناتو هربت بها من السجن العسكري في الاردن .

●

الحوارات التي كانت تجري في القرى التي أمر فيها ، واللقاءات المنفردة في أواخر الليالي في البيوت المعزولة أو البراري ، بدأت تكتسب أفقاً نوعياً بعد الاشهر الأولى .

لم يكن الشعب في مستوى واحد من فكرة الاقدام على العمل والقناعة بتغيير حياته القدرية التي وصل إليها . كان هناك فلاحون وعمال زراعيون وطلاب ، وهؤلاء كانت أفكارهم ومواقفهم تصطدم بآراء المختار والشيخ القطناني وفي القرى الأخرى كنت أرى وأستمع إلى الأصوات التي تجاوزت مرحلة الأنين والبكاء على الماضي والاستسلام لمشيئة القدر المحتوم .

كان الشعب يتململ بحالة جنينية ليخرج من حصاره ، وذلّه ، وانكساره ،